في ظلال الإسلام (١٣)

سلامة موسى

اجتهاد خاطئ أم عمالة حضارية

المفكر الإسلامي

الدكتور محمد عمارة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠
http://gate.dar-elmarf.com

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ١٥٧٠٢
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7850-5

١ / ٢٠١٣ / ٤١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)

تصميم الغلاف: أيمن القاضى

الناشر: دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج. م. ع

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

سلامة موسى

اجتهاد خاطئ أم عمالة حضارية

قائمة المحتويات

مقدمة ٧
تمهيد : عن المشروع الفكري والتوقيت عند سلامة موسى ... ١١
سلامة موسى والإيمان الديني ٢١
المذهب : التفرنج واحتقار الشرق ! ٢٩
- الفرق بين دعوة طه حسين ودعوة سلامة موسى ٣١
- مذهب سلامة موسى هو مواجهة الإسلام وحضارته .. ٣٤
- أكاذيبه عن شرقية العرب وأصلها ٣٨
- دعوته إلى هجر الثقافة والفنون العربية ٤١
- اتهامه اللغة العربية بالعجز وأنها لغة ميتة ٤٣
الرابطة الدينية : سخافة لا تليق ! ٥٥
- دعوته للتضحية بالعالم الإسلامي ومصر ٥٦
- افتراء سلامة موسى على الجامعة الإسلامية ٥٨
- زعمه أن الوطنية مبدأ أوربي لم يعرفه العرب ٥٩
- اتهامه للخلافة الإسلامية بأنها كانت بابوية ٦٦
سلامة والنزعة الفرعونية ٦٩
- نفيه لأي فضل للشرق والمصريين على الغرب ٧٢
الرابطة الحقيقية : التفرنج في الشكل والمضمون ! ٧٤
- تغزّله في الغرب وقوله أن اتفرنج عين الفضيلة ٧٤
- إعجابه بالاستعمار الإنجليزي ٧٦

• • •

مُقَدِّمَة

إبّان الحروب الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] - التي شاركت فيها فرنسا بجهد ملحوظ - رَمى « الملك - القديس » لويس التاسع [١٢١٤ - ١٢٧٠ م] - الذي قاد إحدى حملات تلك الحروب الصليبية . . . رَمى جِبال الخيانة للطائفة المارونية في الشام ، وذلك لإقامة « قواعد محلية » للمشروع الإمبراطوري الفرنسي في الشرق الإسلامي ، وذلك عندما قال - في لقائه بممثلي الموازنة : « نحن مقتنعون أن هذه الجماعة - التي تُعرف باسم القديس مارون - هي جزء من الأمة الفرنسية »[١] !

وبعد هزيمة حملة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] على مصر [١٢١٣ - ١٧٩٨] قرّرت فرنسا - « العلمانية » ! - إقامة مدارس الإرساليات - « الكاثوليكية » ! - في الشام ، وفي الأوساط المارونية بلبنان على وجه الخصوص وذلك لتخريج « جيش من المثقفين المتفانين في خدمة فرنسا . . وحتى تخضع « البربرية العربية » - [كذا] - الحضارة الفرنسية التي روحها « الإنجيل » !! - .

وبالفعل .. خرّجت هذه المدارس « التغريبية - التنصيرية » جيشًا من المثقفين ، الذين سَعَوا إلى إحلال النموذج الحضاري الغربي - الوضعي .. العلماني .. اللاديني - محل حضارة الإسلام .

ولأن الشام قد كان يعيش يومئذ تحت حكم الخلافة الإسلامية العثمانية ، فلقد اتخذ كثير من قادة هذا « الجيش التغريبي » من مصر - التي كان يحتلها الإنجليز - منطلقا لهذا الغزو الفكري ، فأنشأوا فيها المؤسسات الفكرية والثقافية والإعلامية ، التي بشرت بالنموذج الغربي ، كبديل لنموذج حضارة الإسلام .

---

(١) محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص ٧٤ - ط بيروت ١٩٩٠م .

ولقد عرَفَ النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين من أعلام هذا « الجيش التغريبي » - على سبيل المثال - :

- أمين شميل [١٨٢٨ - ١٨٩٧م] الذي كان أول من دعا إلى إحلال اللهجات العامية محل العربية الفُصحى - لغة التراث الحضاري العربي الإسلامي ، والقرآن الكريم .

- وشبلي شميل [١٨٦٠ - ١٩١٧م] الذي كان أول من بَشَّر بالداروينية بديلا عن نظرية الخلق الإلهي للإنسان والوجود .

- وفرح أنطون [١٨٧٤ - ١٩٢٢م] الذي دعا إلى العلمانية ، بديلا عن فقه الشريعة الإسلامية .. وادَّعى أن فيلسوف الإسلام وفقيه المذهب المالكي أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ - ١١٩٨م] قد كان فيلسوفًا ماديًا !

- ونقولا حَداد [١٨٧٨ - ١٩٥٤م] الذي بشَّر بالاشتراكية الغربية ، بديلا عن العدالة الاجتماعية الإسلامية - التي هي أحدُ أركانِ الاجتماع الإسلامي - .

- وعلى صفحات مجلة « المقتطف » [١٨٧٦ - ١٩٥٢م] وصحيفة « المقطم » [١٨٨٩ - ١٩٥٢م] . وفي حماية سلطات الاحتلال الإنجليزي . لَمَعت الأسماءُ وانتشرت النظرياتُ والأفكارُ والنَّزعاتُ التي بَشَّر بها يعقوب صَرُّوف [١٨٥٢ - ١٩٢٧م] وفارس نمر [١٨٥٦ - ١٩٥١م] وشاهين مكاريوس [١٨٥٣ - ١٩١٠م] وغيرهم من المثقفين المَوَارنة الذين صنعتهم فرنسا على عينها . في مدارس الإرساليات الكاثوليكية . ليكونوا الجيش الثقافي المتفاني في خدمة الغرب الحضاري ، والذي يعمل لإحلال النموذج الغربي محل النموذج الإسلامي . الذي سمَّاه قناصل فرنسا ببيروت « البربرية العربية » . .

– هذه النظريات والأفكار والنزعات التي أجاد وَصْفَها إمام الوطنية والمَجدِّد الإسلامي عبد الله النديم [١٢٦١ - ١٣١٣هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦م] عندما قال - في وصف هؤلاء الكتاب وكتاباتهم - : « إنهم أعداء الله وأنبيائه .. والأُجَراء الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لا يَدينون بِدين ، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية ، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة ، مُنكرين وجود الإله الخالق . وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية ، وما هي إلا مَعاول يهدمون بها الأديان »[١] .

ومن هذه الشجرة الخبيثة – التي زرعتها فرنسا في الشرق الإسلامي - تفرعت الفروع المصرية التي تَبنَّت نزعات العلمنة .. واللادينية .. والتغريب .. والتي دَعَت - على لسان الغُلاة - إلى الكفر بالشرق ونموذجه الحضاري الإسلامي .. وإلى الاندماج في الغرب ، والذوبان في فلسفته الوضعية اللا دينية .. وإلى إحلال النظريات والمفاهيم الغربية محل المعالم التي بَلْوَرَها الإسلام للحياة والكون والاجتماع في المعاش والمعاد ..

ولقد كان « سلامة موسى » [١٨٨٨ - ١٩٥٨ م] أوَّل « فرع مصري » لهذه الشجرة التي زرعها الموارنة في حقل الثقافة والفِكْر والإعلام والتعليم .

وإذا كان هذا التغريب ، ومسخ الهوية - الذي نشرته فروع هذه الشجرة وأوراقها - قد تَمايزت فيه المواقف والألوان .. وتراوحت مواقع أعلامه ودُعَاته بين :

– **الاجتهاد الخاطئ** ، الذي آب أعلامه إلى النموذج الإسلامي عندما بلغوا مرحلة النضج الفكري .

---

(١) عبد الله النديم - مجلة [الأستاذ] - القاهرة - العدد ٣٩ ص ٩٢٣ ، ٩٢٤ - بتاريخ ٧ ذي القعدة ١٣٢٠هـ - مايو ١٨٩٣م .

- **والنفاق** ، الذي دَسَّ أصحابُه السُّمَّ في العسل ، وألبسوا السيئات لباس الحسنات !

- **والجهل** ، الذي حسب أصحابه وضحاياه أن « التخلف العثماني » هو الإسلام .. وتوهموا أكذوبة وحدة الحضارة - على النطاق العالمي .. وعبر التاريخ - ومن ثم حَسبوا أن تقدم الشرق لا بد أن يكون بما تقدم به الغرب ، غافلين عن تميُّزنا الحضاري .. وعن « أن آخر هذه الأمة لن يَصْلُح إلى بما صَلُحَ به أولها - الإسلام - .. » .

وإذا كانت ميادينُ التغريبِ قد تَمايزت فيها هذه المواقعُ وهذه المواقفُ .. فإن سلامة موسى قد تميز عن جمهور المتغربين - وربما تَفَرَّد - « بالصراحة » التي بلغت حَدَّ « الوقاحة » في الدعوة إلى الكفران بالشرق وأُمَّته ولغته وقوميته وحضارته وتاريخه وعاداته وتقاليده وأعرافه ومُؤَسساته - وقبل كل ذلك الكُفران بكل ما له أدنى علاقة بدين الإسلام - ! .. ولقد كانت لهذه « الصَّراحة » التي بلغت حد « الوقاحة » فضيلة الكشف عن المقاصد والمآلات الحقيقية من وراء دعوات اللحاق بالغرب ، والذوبان فيه .. تلك المقاصد والمآلات التي حاولت إخفاءها أو تمويهها كتابات « المُتَغَرِّبين المنافقين » .

ولكشف حقيقة هذه المقاصد والمآلات تأتي هذه الدراسة التي تُقَدِّم معالم المشروع الفكري لسلامة موسى - بنصوص عباراته .. وذلك ليمتاز الحق من الباطل في العلاقة ما بين الشَّرق والغرب .. وما بين الإسلام والتغريب ..

والله من وراء القصد .. منه نستمد العَون والتوفيق .

دكتور / محمد عمارة

القاهرة : المحرم سنة ١٤٣١ هـ

يناير سنة ٢٠١٠م

تمهيد
المشروع الفكري والتوقيت
عند سلامة موسى

[١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ / ١٨٨٨ - ١٩٥٨م]

عند سلامة موسى ، وبصدد التبنّي للنموذج الحضاريّ الغربيّ والدعوة إليه والتبشير به ، يختلف الأمر اختلافًا جوهريًا في المستوى والمنطلقات ، وفي المقاصد والغايات عن غيره من جيل الرواد الذين انبهروا بالغرب ، وأدهشَتْهُم نهضتُه ، فتبنَّوا نموذجَه في « التنوير - العلماني » .

فسلامة موسى لم يكن « مجتهدًا » أخطأ في حقبة انبهاره ، فلما نَضَجَ عاد عن هذا الانبهار ، كما كان الحال لدى كثيرين من جيل هؤلاء الرواد : منصور فهمي باشا [١٣٠٣ - ١٣٧٨ هـ / ١٨٨٦ - ١٩٥٩م] ، والدكتور محمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ / ١٩٨٨ - ١٩٦٥ م] ، والأستاذ الدكتور طه حسين باشا [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ / ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] وغيرهم من جيل الرواد الذين بَشَّروا بـ « التنوير - الغربيّ - العلمانيّ » ثم عادوا - بدرجات متفاوتة في العمق ، وفي صراحة وشجاعة النقد الذاتي - عن هذا الانبهار .

لم يكن سلامة موسى من هذا الفريق ، وإنما كان الرجل : مشروعًا فكريًا « للعمّالة الحضارية » بلغ حدَّ « الصراحة العارية » حتى عن « ورقة التوت » ، التي تَسْتُرُ عورات « العمّالة » الكاملة للحضارة الغربية . بل لقد مَثَّلَ القِمَّةَ في مشروع « التفرنج » الذي استهدف نَزْعَ أسلحة المقاومة الحضارية لدى الأمة عندما عَمَّتْها بَلْوى الاحتلال الاستعماريّ ،

وسقطَتْ فريسةَ تحديات التغريبِ والمسخِ والنَّسخِ والتشويه لذاتيتها القومية وهويتها الحضارية .

وإذا كانت الحرب الاستعمارية العالمية الأولى [١٣٣٢ - ١٣٣٦هـ / ١٩١٨ - ١٩٨٤ م] قد مَثَّلَت حقبة عموم هذه البلوى ، فسقطت ديارُ الإسلام تحت سَنَابكِ الاحتلال الاستعماريّ الغربيّ ، وبَدَأَ التنفيذُ لمخطط الشراكة « الصهيونية - الصليبية » في قَلْبِ وطنِ العروبة وعالم الإسلام ، وأسقط « المشروع العربيّ » باتفاقية « سيكس - بيكو » [١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م] وطويت صفحة « الخلافة الإسلامية » - رمز « المشروع الإسلاميّ » - بإلغائها [١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م] ، وتَخَلَّقَت في واقعنا الفكريّ والسياسيّ الداخليّ دعوات وأحزاب ومذاهب جَعَلَت النموذج الغربيّ - نموذج الغالب المستعمر - المثل الأعلى الذي يَتَعلَّقُ به المغلوبون سبيلا للتحرُّر والخلاص !

إذا كانت الحرب الاستعمارية العالمية الأولى ، والسنوات التي أعقبتها - حتى إلغاء الخلافة الإسلامية - قد مَثَّلَت ذروة مأساة القهر الخارجيّ - الغربيّ - لوطن العروبة وعالم الإسلام ، والتي جَسَّدَتها كلمات الجنرال الفرنسيّ « جورو » [١٨٦٧ - ١٩٤٦ م] عندما احتلَّ دمشق ، وذهب ليركل بقدمه قبر صلاح الدين الأيوبيّ [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ - ١١٩٣ م] ويقول للأمة - في صورة بطلها الأسطوريّ - : « **ها نحن قد عُدْنا يا صلاح الدين** » !

إذا كانت تلك هي ذروة مأساة القهر الخارجيّ ، فإن عامي [١٩٢٥ م ،

١٩٢٦ م] ، اللذين أعقبا إلغاء « الخلافة الرمز » ، قد مَثَّلا بداية ذروة الهجمة التغريبية ، التي استعار روادها أسلحة « التنوير - الغربي - العلمانيّ » ليواجهوا بها الإسلام ، ساعين إلى أن يَصْنَعوا به ومَعَه وفيه ما صَنَعَ « التنوير - الغربي » مع النصرانية الأوربية في عصورها الوسطى . ففي هذين العامين قامت أعْتَفُ معارك « التنوير - الغربي » ضد المشروع الإسلاميّ ، عندما صَدَرَ كتاب [الإسلام وأصول الحكم] سنة (١٩٢٥ م] ، وكتاب [في الشعر الجاهلي] سنة (١٩٢٦ م) .

ولهذه الحقيقة من حقائق تاريخ أمتنا مع هذا « التنوير - الغربيّ - العلمانيّ » كان اختيارنا لكتاب سلامة موسى [اليوم والغد] ليكون نموذجًا لمشروعه الذي استهدف « فَوْنَجَة » الأمة ، والإجهاز على أيّ أثرٍ لخصوصيتها الحضارية ، إنْ في الشكل أو في المضمون ، وإنْ في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل ! فهذا الكتاب - [اليوم والغد] - هو مقالاته في هذين العامين [١٩٢٥ ، ١٩٢٦ م] ، وفيه معالم المشروع الفكريّ الذي نَذَرَ له قَلَمَه وحياته ، وقسمات المذهب الفلسفي الذي ناضلَ في سبيله حتى الرمق الأخير . ففيه وبه حَدَّدَ « مفترق الطرق » أو « خاتمة اليوم والغد » عندما صَاحَ بأعلى صوته : « **إننا أوربيون في كل شيء حتى في الخلقة والدماء ، منذ فجر التاريخ واليوم والغد .. فعلينا أن نَتَفَرْنَجَ ونَلْعَنَ العربَ والإسلامَ والشرقَ بكلِّ اللغات ، وفي جميعِ الساحات !** » .

وأما تَمَيُّزُ هذا المشروع التغريبيّ لسلامة موسى ، في المستوى الذي بلغ حدَّ « العمالة الحضارية » - وليس الاجتهاد الخاطئ - وفي « الصراحة » التي جَرَّدت مخطط « الإلحاق التغريبيّ » حتى من « ورقة التوت » ، الأمر

الذي بَلَغَ بهذا المشروع حدَّ « التجريح » لكرامة الأمة ووطنيتها وعروبتها وشرقيتها – ناهيك عن إسلامها – حتى لقد غَدَا « استفزازًا » شديدًا للعقل والوجدان . أمام هذه الحقيقة المميزة لمشروع سلامة موسى التغريبي ، فإنني أدعو القارئ – ونحن على أبواب عَرْضِ معالم هذا المشروع – إلى التحمُّل والتخلُّق بعدد من الخصال والمؤهِّلات :

أدعو القارئ « للصبر » على « وَخْز » هذه « الصراحة » – التي قد يراها البعض « وقاحة » – التي ساق بها سلامة موسى آراءَه . فما نَجِدُه عند الرجل « عاريًا » نجده عندَ غيره – من روادِ وتلاميذ « التنوير – الغربيّ – العلمانيّ » – « مُغَلَّفًا » على أنحاء متفاوتة في ألوان ودرجات « التغليف » ، وما نَجِدُه في مشروعه الفكريّ « سُمًّا خَالِصًا » نَجِدُه مدسوسًا في « العسل » عند الآخرين ! .. فللرجل – برأيي – فضْلُ « الصراحة » التي تجاوزت حدودَ مضامين هذا الاصطلاح !

وأدعو القارئ – أيضًا – إلى أمرٍ مُهِمٍّ ، وهو عدمُ الخلطِ بين آراء سلامة موسى – كقبطيّ نصرانيّ – وبين وطنية نصارى مصرَ وأقباطها ، فـ « العمالة الحضارية » للرجل – وهي غير « العمالة السياسية » التي لا دليل عليها – لا علاقة لها بالوجه المُشْرِق لوطنية جمهور الأقباط المصريين ، الذين شاركوا في الثورات الوطنية لمصر جنبًا إلى جَنْبٍ مع جمهور الأغلبية المسلمة ، حتى قامت في الحياة الوطنية المصرية ، على هذا الوجه المشرق لوطنية الأقباط وإخلاصهم لوطنهم ، الكثير من الأدلة والبراهين .

بل لقد تجاوز عقلاء النصارى – من المصريين والعرب – إطار

« التلاحم الوطني » مع المسلمين ، إلى حيث أدركوا ما في الإسلام الحضاريّ والثقافيّ من جامعة للتوحيد الوطنيّ والقوميّ والحضاريّ لأبناء الأمة جميعًا ومن مختلف الديانات .. فقال مكرم عبيد باشا [١٣٠٧ - ١٣٨٠ هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٦١ م] : « نحن مسلمون وطنًا .. ونصارى دينًا » ، وكان يناجي ربَّه فيقول : « اللهُمَّ اجْعَلْنا نحن مسلمين لك ، وللوطن أنصارًا ، واللهم اجْعَلْنا نحن نصارى لك وللوطن مسلمين »[١] .

وكتب **ميشيل عَفْلق** [١٣٢٨ - ١٤٠٩ هـ / ١٩١٠ - ١٩٨٩ م] النصرانيّ الأرثوذكسيّ عن الإسلام كجامعة للنصارى والمسلمين جميعًا : « **لا يوجد عربيّ غير مسلم** » !

فالإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا ، وفلسفتنا ، ونظرتنا إلى الكون ، إنه الثقافة القومية الموحّدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، وبهذا المعنى لا يوجد عربيّ غير مسلم ، إذا كان هذا العربيّ صادق العروبة ، وإذا كان متجرّدًا من الأهواء ، ومتجرّدًا من المصالح الذاتية . وإنَّ المسيحيين العرب ، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم ، سوف يعرفون بأنَّ الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجبُ أن يَتَشَبَّعُوا بها ويحبوها ، ويحرصوا عليها حِرْصَهم على أثمنِ شيء في عروبتهم ، ولئن كان عجبي شديدًا للمسلم الذي لا يحِبُّ العرب ، فعجبي أشد للعربيّ الذي لا يحبُّ الإسلام ![٢]

---

(١) صحيفة [الوفد] - لقاء مع د . غالي شكري - في ٢١ يناير سنة ١٩٩٣ م .

(٢) [الكتابات السياسية الكاملة] ج ٣ ، ص ص ٣٣ ، ٢٦٩ ، ج ٥ ، ص ٦٨ ، طبعة بغداد سنة ١٩٨٧ ، ١٩٨٨م .

وقال القس – القبطي الكاثوليكي – يوحنا قلته : « أوافق تمامًا على أن أكون مصريًا .. مسيحيًا ، تحت حضارة إسلامية .. بل أنا مسلمٌ ثقافةً مائة في المائة . أنا عضو في الحضارة الإسلامية التي تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحيّ ، والتي تعلي من قيمة الإنسان كخليفة عن الله في الأرض .. فكلنا مسلمون حضارة وثقافة .. وإنه ليشرفني ، وأفتخر أنني مسيحي عربي ، أعيش في حضارة إسلامية ، وفي بلد إسلامي ، وأساهم وأبني مع جميع المواطنين هذه الحضارة الرائعة ... » ! [١]

ويقول **الدكتور غالي شكري** – في لحظة صِدْقٍ مع الحقيقة – : « على الشباب القبطي أن يُدْرِك جيدًا أنَّ هذه الحضارة العربية الإسلامية هي حضارته الأساسية ... إنها الانتماء الأساسيّ لكافة المواطنين ... لقد ورثت كلَّ ما سبقها من حضارات ، وأصبحت هي الانتماء الأساسيّ ، والذي بدونه يصبح المواطن في ضياع . إننا ننتمي كعرب من مصر إلى الإسلام الحضاريّ والثقافيّ ، وبدون هذا الانتماء نصبح في ضياع مطلق ، وهذا الانتماء لا يتعارض مطلقًا مع العقيدة الدينية ؛ لأن الإسلام وَحَّدَ العرب ، وكان عاملاً توحيديًا للشعوب والقبائل والمذاهب والعقائد » [٢] .

---

(١) انظر كتابنا : [الإسلام والسياسة – الرد على شبهات العلمانيين] ص ٢٠٥ ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة سنة ١٩٩٢م .

(٢) صحيفة [الوفد] عدد ٢١ يناير سنة (١٩٩٣ م) . وجدير بالملاحظة تعارض هذا الموقف الواضح والناضج للدكتور غالي شكري مع تبنيه لآراء سلامة موسى – التي سنورد نصوصها – لكن يبدو أن « الوجوه المتعددة » لفكر غالي شكري و « الارتدادات العقدية » لديه – وهي غير « التطور الفكري » – هي التي جَمَعَت وتجمع بين المتناقضات .

لقد تجاوز عقلاء النصارى مستوى « التلاحم الوطني » إلى مستوى الإيمان بانتمائهم إلى الحضارة الإسلامية ، واندماجهم حضاريًا وثقافيًا في الإسلام الحضاريّ والثقافيّ ، وهو الأمر الذي يجعل من « العمالة الحضارية » لسلامة موسى استثناء يثبت القاعدة ، وشذوذًا لا يجوز أن يُشَوِّه الوجه المشرق لوطنية النصارى المصريين .

كذلك ، أدعو القارئَ ألا يَحْمِلَ آراءَ سلامة موسى في الدين والتدين - وهي التي سنورد نصوصَها - على النصرانية كدين عام ، ولا على الأرثوذكسية القبطية بوجه خاص ، فالرجل كان « وزرًا ماديًا » يبرأ منه « الإيمان النصرانيّ » ، بل ومطلق « الإيمان الديني » ، وكان « علمانية - شبه ملحدة » فَرّغَت الدين والتدين من محتواهما الأول والحقيقي ، فمن الظلم البيِّن حسبانه على تعاليم الكنيسة المصرية ، وما تعصُّبُه « لقبطيته » إلا « حَمِيَّة طائفية » لا علاقة لها بروحانية النصرانية كدين ، فَنَقْدُه إنصافٌ للنصرانية ، وتبرئة للكنيسة المصرية من هذه « الأوزار » التي مَثَّلَتْهَا أفكارُه التي سنورد نصوصَها بعد قليل .

إنَّ نَسَبَه الحقيقي ، وانتسابه الشرعيّ لم يكن « للوطنية القبطية » ، ولا « للكنيسة الأرثوذكسية » ، وإنما كان إلى سَلَفِه القديم « المعلِّم يعقوب » [١٧٤٥ - ١٨٠١ م] ، الذي صَنَعَ في مصر صنيع بعض اليهود الصهاينة ، عندما استجابوا لنداء بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] إبان حملته على مصر [١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م] - ندائه للأقلّيات الدينية ، كي تعاونه في إلحاق الشرق بالغرب ، فتخلَّقت - منذ ذلك التاريخ - في

الأوساط اليهودية بواكير الحركة الصهيونية الحديثة ، وبدأت « بالمعلّم يعقوب » بواكير إلى الدعوة إلى :

١ – استقلال ، وإن شئت الدقة فقل : « عَزْل » مصر عن تراثها العربيّ والإسلاميّ .

٢ – و « استقلالها » « عزلها » عن المحيط العربيّ والإسلاميّ ، الذي تَمَثَّلَ يومئذ في الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية .

٣ – وإخضاع مصر وإلحاقها بالغرب – السياسي والحضاري – كبديل عن الحضارة العربية الإسلامية ، وكانت انجلترا – في مشروع « المعلم يعقوب » – هي ممثّل الغرب في ذلك الحين ، كما كانت في مشروع سلامة موسى .

والذين يتأمّلون مشروعَ سلامة موسى « لفَرْنَجة » مصر وإلحاقها بأوربا – كما سنعرضه بنصوص الرجل – ثم يُقَابِلُون البواكيرَ الأولى لهذا الاتجاه عند « المعلّم يعقوب » الذي أَوْصَى انجلترا ، وهو يُوَدِّعُ الحياة ، بإلحاق مصر حضاريًا . بدلاً من امتلاكها كمستعمرة ، فأَمْلَى في هذه الوصية : « **إنَّ الإمبراطورية العثمانية توشكُ أن تتداعى من كلّ جانب ؛ ولهذا فمن المهم للإنجليز أن يلتمسوا الوسائل المضمونة للاستفادة من عَهْدِ تمزقها التاريخي بأنسب طريقة تُحَقِّقُ مصالحهم السياسية المستقبلة . إنَّ بريطانيا العظمى ليست بحاجة إلى امتلاك مصر كمستعمرة ؛ لأنها ستستأثر دائمًا بالتجارة معها ، نتيجة طبيعية لتفوّقها**

البحري ، فهي ستؤثر إذن في مصر باختيارها » [١] .

إن الذين يتأملون مشروع سلامة موسى ، الذي انبرى للتبشير به ، وبخاصة عقب انهيار الدولة العثمانية ، وإلغاء الخلافة سنة (١٩٢٤ م) ، يجدون هذا المشروع « التفصيل - التطبيقي » لوصية « المعلم يعقوب » وهو يُحْتَضَرُ على ظَهْرِ السفينة التي أَقَلَّته مع جيوش الحملة الفرنسية المنسحبة من مصر سنة ١٨٠١م .

وكما تَبَرَّأَت الكنيسة المصرية ، إبَّان الحملة الفرنسية ، من خيانة « المعلّم يعقوب » - الذي التحقَ بجيش بونابرت ، وأصبح « جنرالا » و « قائمقام ساري عسكر الفرنسيس » ، وسوط عذاب الفرنسيين على ظهور المصريين - حتى لقد سَمَّاه الجبرتي [١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ / ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م] « يعقوب اللعين » ! كما كان الحال في علاقة يعقوب اللعين ومشروعه بالكنيسة المصرية ووطنية الأقباط المصريين ، كذلك كان ، ويجب أن يكون حال العلاقة بين سلامة موسى ، ووطنية ونصرانية نصارى مصر وكنيستها الأرثوذكسية .

فمشروع سلامة موسى لـ « تَفَرْنُج مصر » وإلحاقها بأوربا ، هو « الإعلان الفجّ » عن مشروع سَلَفِه « المعلّم يعقوب » ، ولا ضيرَ على أقباط مصر ولا على كنيستها من كَوْنِ الرجلين قد وُلِدَا قِبْطِيَّين وحَمَلا

---

(١) انظر تفصيل الحديث عن مشروع « المعلّم يعقوب » في كتاب : لويس عوض . تاريخ الفكر المصري لحديث القاهرة : دار الهلال ، ١٩٦٩ . ج ١ ، ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٩ .

أسماء الأقباط ، فكثير من المسلمين ، الذين ساروا على دَرْبِ التغريب والإلحاق الحضاريّ ، و « التنوير الغربيّ - العلمانيّ » قد سَلكُوا ذات السبيل ، وإن لم يبلغوا في « الحدَّة » و « الصراحة » ما بَلَّغَه « سلامة موسى » و « يعقوب اللعين » .

والآن ، وبعد هذه المقدِّمات التي دعوت القارئ إلى استحضارها ، ونحن مقبلون على عَرْضِ ملامح وأركان « التنوير - الغربيّ - العلمانيّ » ، كما تَجَسَّدَ في المشروع الفكريّ لسلامة موسى ، نبدأ باستعراض ملامح هذا المشروع من خلال نصوص الرجل ، حتى لا تكون هناك أدنى شبهة في أي لون من ألوان المبالغات .

سلامة موسى
والإيمان الديني

إذا كان الإيمان بإلهٍ خالق لهذا العالم وللإنسان ، ومنعم على هذا الإنسان بالنعم التي أفاضها في الطبيعة ، هو جوهر الدين ، والحد الأدنى للتدين بأي دين ، فإننا لا نجد هذا الحد الأدنى في المشروع « التنويري – العلماني » الذي تحدثتْ عنه كتابات سلامة موسى ، بل إن كتاباته قد رفضت هذا الحد الأدنى للإيمان الديني .

فهو عندما يتحدث عن الذي هدى المصريين إلى الزراعة يقول : « **إن النيل هو الذي هداهم إلى الزراعة ، التي هي أصل الحضارة** »[١] ، فالنيل عنده هو « الهادي » ، وليس الله !

وعندما يزعم أن المصريين أوربيون ، حتى في الشكل و « السحنة » ، يحمد على ذلك « الأقدار » ، لا يحمد الله ، فيقول : « **ولكننا نحمد الأقدار على أننا ما زلنا في السحنة والنزعة أوربيين** »![٢] .

وعندما يتحدث عن الذي أنعم على المصري بنعمة النيل ، يرى « الطبيعة » هي المنعم ، والنيل مصدر العلم والفقه . أما الدين في حياة المصري القديم فمصدره « جفاف المناخ » ، وليس الله ! وكذلك الاعتقاد بالعالم الآخر ، عالم ما بعد الموت ، مصدره « التحنيط » ، وما قصة « نوح »

---

(١) سلامة موسى . اليوم والغد .– القاهرة ، ١٩٢٨ م . ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦

و « الفيضان » إلا من ثمرات « النيل » في حياة المصري القديم !

كل هذا « التنوير – الغربي – الملحد » ينقله سلامة موسى عن فلاسفة « التنوير – الغربي » الذين يذكر منهم « إليوت سمث » فيقول : « **وكما أن الطبيعة أنعمت على المصري بالنيل يعلمه الزراعة ، وفقهه في علاقة الماء بها ، كذلك جفاف المناخ المصري علّمه الدين ، ومن التحنيط نشأ الاعتقاد بالعالم الثاني ، وكان للنيل دخل آخر في الدين ، وهو أنه جعل المصري يقدس الماء ، ويعتقد أنه أصل كل شيء حي ، وأنه يطهر كل شيء ، وليست قصة الفيضان ونجاة نوح منه ، إلا إحدى نتائج الاعتقاد بفيضان النيل ، وأنه أصل الحياة ، كما أثبت ذلك إليوت سمث** »![1] .

أما العقل الإنساني ، فهو من « مخترعات الطبيعة » : « فقد اخترعت لنا الطبيعة العقل للتمييز والحكم بين غرائزنا ، ومعرفة النافع والضار في أحوال معاشنا » ![2] .

والجنين ينمو ، على نحو دون الآخر ، بفعل « الذاكرة » ، وليس بفعل الإله الخالق ! « **فللجنين ذاكرة تلهمه بأن ينمو على طريقة بعينها** » ![3] .

وكما نزع « التنويريون – الغربيون » عن الدين « المطلق » ، وجردوه من مصدره الإلهي ، وسوَّوا بين حقائق علومه وحقائق العلوم المادية الطبيعية في نسبيتها وتغيرها ، كذلك صنع سلامة موسى فيما استعار من

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠ ، ١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

فكر وفلسفة التنوير الغربي ، فهو يستنكر عدم إخضاع الحياة الروحية وعلومها الدينية لما خضعت وتخضع له علوم الكيمياء وأمثالها ! فيقول : **« هذه الحياة الروحية في الإنسان قد تأخرت تأخرًا هائلًا . وكيف لا تتأخر إذا كنا نمنع الناس من انتقادها ؟ وهل كان علم الكيمياء يتقدم لو كنا نمنع الناس من انتقاده كما نمنعهم من انتقاد الأديان ؟ ! فما لم نفعل ذلك ، وننظر إلى العلوم الدينية كما ننظر إلى الكيمياء ، فإننا لن نتقدم »** ! [١] .

وهو هنا : « تنويري – غربي » ، أنكر وجود إله مفارق للمادة ، ذي علم مطلق ، فدعا إلى معاملة العلوم الدينية – ذات المصدر الإلهي ، والتي هي قبس من العلم الإلهي الكلي والمطلق – دعا إلى التعامل معها كما نتعامل مع العلوم المادية المدركة بالعقل النسبي والحواس النسبية ، والمتغيرة والمتطورة حقائقها بسبب هذه النسبية المجردة من الإطلاق !

ولهذا السبب فهو معجب بالتراث اليوناني الذي تعامل مع الآلهة بحسبان قدراتها نسبية ومحددة ، ومع القيم بحسبانها نسبية وغير مطلقة ، ويعبر عن هذا الإعجاب فيقول : **« ومن يقرأ « جمهورية » أفلاطون ، ويرى الحرية التي يتكلم بها عن الزواج ، أو من يقرأ « الأخلاق » لأرسطوطاليس ، ويقف عند قوله : إن الآلهة على قدرتها لا يمكنها أن تبدل نواميس الطبيعة ، يأسف لفقدان هذه الروح من الأدب العربي . والغريب في العرب أنهم عنوا بعلوم الإغريق وطبهم ، وهو**

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠ ، ٢١ .

أسخف ما كتبوا - [! !] - دون أن يعنوا بآدابهم وفنونهم » ! [١] .

فالرجل لم يكن يريد لنا علوم اليونان ، وإنما كان يريد ما لديهم من وثنية وإلحاد ، ولعله في ذلك فريد غير مسبوق ! ولذلك ، فلقد كان طبيعيًا مع من يستعير « فلسفة التنوير الغربي الإلحادية » أو « الوضعية » - التي ترى الدين إفرازًا بشريًا ونسبيًا لا مطلق فيه - كان طبيعيًا مع من يستعير هذا « التنوير - الملحد » أن يجرد النصرانية من نسبها الإلهي ، حتى ولو كان نصراني الاسم والميلاد !

لقد قسَّم سلامة موسى النصرانية إلى « لاهوت » و « أخلاق » ، وحكم بأن « لاهوتها » هو ذات الوثنية المصرية القديمة - في عقيدة الثالوث - أما « أخلاقها » فهي إغريقية . ومن ثم فلا شيء في النصرانية لله والسماء والوحي والدين الإلهي ! هكذا رأى النصرانية ، وكتب يقول : « **ويمكن أن نقول إن أوربا استفادت ديانتها من الشرق ، ولكن يجب ألا نلقي هذا القول جزافًا ، فالديانة المسيحية مؤلفة من عنصرين : أحدهما خاص باللاهوت ، والآخر خاص بالأخلاق . فالأول - وهو اللاهوت - يرجع الفضل فيه إلى المصريين ، فإن النظريات الخاصة بالثالوث المقدس ، أو التجسد ، أو البعث ، هي نفسها تلك النظريات التي كانت شائعة عند المصريين . ونظرية الثالوث هي أهم أركان الديانة المصرية القديمة ، فإن الربة إيسيس هي العذراء التي تلد هورس من رب الأرباب أوزوريس . ويمكن أن نتتبع تطور الفن المسيحي من مصر إلى روما ، حتى تصير إيسيس وابنها هورس كلاهما : مريم وابنها السيد المسيح . هذا من حيث**

---

(١) المصدر السابق ، ص ١١٠ .

اللاهوت ، وأما من حيث الآداب المسيحية فالفضل فيها يرجع إلى الإغريق ، فإن من يقرأ محاورات الرسل يشعر بالروح الإغريقية التي كانوا مشبعين بها في تبشيرهم الأمم الوثنية » ! [١] .

ونحن هنا لا نناقش ما في هذا الكلام من صواب أو خطأ ، وإنما نقول : إن سلامة موسى - الذي أرجع المسيحية إلى المصادر الوثنية - المصرية ، والإغريقية - لا يمكن أن يعده المسيحيون الابن البار للنصرانية كدين سماوي ، ولا الابن البار للكنيسة الأرثوذكسية التي جعلت من خلاص الروح ورعاية مملكة السماء رسالتها الوحيدة على هذه الأرض ، وإنما هو الامتداد السرطاني « للتنوير - الغربي - الملحد » ، جاء لاقتلاع الدين الإلهي - مطلق الدين - من حياة الأمة التي انتسب إليها ! ولذلك كان الرجل صريحًا صراحته « العارية » عندما رفض عقيدة النصرانية في العذراء والمسيح ، باعتبارها عقيدة بالية لا تليق بالعقل المتعلم والمثقف ! فكتب يقول : « **إنه من البدهي أن عبادة إيسيس العذراء وابنها هورس قد قدمت وبليت ، ولم يعد فيها مقنع لنفس إنسان متعلم مثقف** » [٢] .

وإذا كنا نقرأ الآن لتلامذة سلامة موسى وغيره من رواد « التنوير - الغربي - الإلحادي » كلامًا كثيرًا عن « تاريخية النصوص المقدسة » - وهي « تاريخية » تنزع القدسية والإطلاق والخلود والثبات عن هذه النصوص - ونقرأ لهم وصفًا للشريعة الإسلامية - التي نؤمن بأنها « وضع إلهي ثابت » - بأنها « شريعة البداوة » ، أي تجاوزها التطور التاريخي

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

الذي تجاوز مجتمع البداوة ! كما قرأنا لنظيرهم التركي « عزيز نسين » تعجبه من المسلمين الذين لا يزالون - « كالبهائم » - يتبعون قرآنًا « مؤلفًا » - [! !] - منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا !

نقرأ لتلامذة سلامة موسى هذا الكلام وغيره الذي يدعون فيه إلى « تطوير العقائد الدينية بما يجاري تطور العلوم الطبيعية الحديثة » !

إذا كنا نقرأ هذا الذي يعده الدين والتدين والإيمان والمؤمنون - بأي دين - « هذيانًا إلحاديًا » ، فإن علينا أن ندرك أن هذا « الهذيان الإلحادي » هو « الفكر الوضعي » الذي عممه « التنوير الغربي » على الدين ، وذلك عندما سوى المطلق بالنسبي ، والإلهي بالإنساني ، والثابت بالمتغير ، والمقدس بما لا قدسية فيه . فنحن أمام « التنوير الغربي » في جيل التلامذة ، الذين يمثلون روادهم وأساتذتهم في هذا الميدان ، وفي المشروع الفكري لسلامة موسى نجده ينقل عن الكاتب الإنجليزي « هـ . ج . ولز » [١٨٦٦ - ١٩٤٦ م] هذا الذي يردده تلامذة « التنوير الغربي » عن تاريخية النصوص المقدسة ، وضرورة « تطوير العقائد » وفق تطور العلوم .

لقد كتب سلامة موسى عن هذا الملمح من ملامح « التنوير - الغربي - الوضعي » فقال : « ... **ليس يعقل أن يعيش الإنسان آلاف السنين ، يتعاوره التقدم المادي في جميع ما يلابسه ويزاوله ، ثم يبقى الدين جامدًا لا يتطور وفق التطور المادي** » .

ثم مضى فَسَاقَ تصور الكاتب الإنجليزي « ولز » لتطوير الكتب المقدسة سنويًا ، حتى لكأنها « حولية » تتغير كل عام ، وحتى لكأنها

« متغيرات » لا « ثوابت » فيها . ومما يستقل العقل الإنساني - نسبي القدرات والإدراكات - بعلم كل ما فيها من أخبار عالَمَيْ الغيب والشهادة ، مضى سلامة موسى فساق تصور فلسفة « التنوير - الوضعي - الغربي » لتطوير الكتب المقدسة ، كنموذج على ما يريده لنا ، فقال : « وقد عالج « ولز » هذا الموضوع فقال : إنه يجب أن تؤلف توراة جديدة توافق العصر الحاضر ، تضعها فئة منتقاة من العلماء والفلاسفة والأدباء ، وينبغي تنقيحها كل عام وفق مطالب الحياة الجديدة ، ويجب أن تؤلف التوراة الجديدة على غرار التوراة القديمة ، فيبدأ فيها بسفر التكوين ، فتستبدل بقصة آدم وحواء تاريخًا علميًا لتكوين الأرض وظهور الحياة عليها ، وتطور النبات والحيوان ، وتنازعها البقاء ، وانقراض بعضها ، ثم ظهور الإنسان ، ووصف جهاده للطبيعة ، والتغلب عليها ، وانتقاله من عهد الصيد إلى الرعاية إلى الزراعة ، ثم معرفته المعادن ونشوء الصناعة ، ويلي ذلك قاموس يسير عليه بنو البشر ، يتضمن أهم قواعد الصحة وصيانة الجسد ، وضرورة الرياضة التي لم تكن لازمة لليهود وهم يرعون أغنامهم بالمروج ، ولكنها تلزمنا الآن في أشغالنا الراهنة ، ثم يجب أيضا أن يتضمن هذا القسم كل ما عرف عن الحكمة الجنسية ، والعلاقات الزوجية ، وما تنبغي معرفته عن آداب الامتلاك ، وعلاقة العمال بالملاك ، وقيمة المراهنات والمضاربات وآداب البورصة ، وما إليها مما يلتصق بحياتنا ، ثم يلي ذلك « نشيد الإنشاد » في التوراة ، ويقابله عندنا الآداب الشهيرة عند الأمم المختلفة ، توضع في مكان الملحق بالتوراة . ثم يلي ذلك فصل عن التنبؤات يضعه ساسة العالم ، ويسجلون فيه على أنفسهم ما يتنبأون به عن مستقبل الأمم التي يسوسونها . ثم ، هذه التوراة يجب أن تكون لها لجنة عليا ، تعمل على تنقيحها كل عام بما يوافق المستكشفات والمخترعات .

والخلاصة ، أنه يجب أن تجعل الأخلاق وفق المستكشفات والمخترعات الحديثة ، وذلك بتعديل قوانين الامتلاك ، وتخفيف الروح الوطنية ، وإزالة النزعة الوطنية من التاريخ ، وفرض الولاء لعصبة الأمم على كل أفراد العالم . ثم ، لكي يتحد الناس في نزعة صحيحة يجب أن يكون لهم ناموس جديد مؤلف على نمط علمي ، يربطهم جميعًا في رابطة روحانية واحدة »! (١)

تلك هي صورة تطوير الكتب المقدسة ، كي تستجيب « للتاريخية » التي يريدها لها « التنوير – الغربي – الوضعي » ، وهي ليست صورة هزلية فقط ، بل هي أساس « الهزل » الذي نطالعه « للتنويريين – المتغربين » عن تحديث الدين ، وتطوير العقائد الدينية ، وتجاوز الموروث الحضاري ، وتبعية الفكر الديني – بحسبانه « بناء فوقيًا » للأبنية « التحتية – المادية » في التغير والتطور والزوال ؟! .

إنه « الدين – الوضعي » الذي وضعه البشر وتواضعوا عليه ، ذلك الذي « آمن » به سلامة موسى ورواد وتلاميذ « التنوير – الوضعي – الغربي » ، والذي يبشرون به بيننا حتى هذا التاريخ ! فعليه يُحْسَبُون ، وبمعاييره يكون نقدهم ؛ لأن الديانات السماوية – مطلق الديانات السماوية – بريئة منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

تلك هي صفحة « الإيمان الديني » في مشروع سلامة موسى بـ « تفرنج الأمة » حتى في الدين !

(١) المصدر السابق ، ص ١١٥ – ١١٧ .

المذهب

التفرنج واحتقار الشرق ؟ !

فيما كتبه سلامة موسى في العشرينيات ، وتبعه فيه طه حسين في الثلاثينيات ـ بعبارات أقل حدّة ـ حول انتمائنا الثقافي والحضاري والعقلي إلى الإغريق والرومان والغرب ـ وليس إلى الشرق ـ « خداع فكري » يَعْجب المرء كيف جاز على الكاتبين وعلى الذين أيدوا هذا الاتجاه !

لقد عقدوا المقارنة والمقابلة والمفاضلة بين العقل الشرقي ، بمعنى حضارة وثقافة الشرق الأقصى ، في اليابان والصين ، وبين العقل الغربي الأوربي ، بمعنى حضارة وثقافة الإغريق والرومان وأوربا الحديثة والمعاصرة ، ثم خلصوا إلى أن أمتنا غربية العقل ، أوربية الحضارة والثقافة ، إذ لا رابطة تربطها بالصينيين واليابانيين !

ولست أدري ، في أي مرحلة من مراحل التاريخ ، ولا في أي مذهب من مذاهب الفكر ، قد طرحت قضية انتمائنا الفكريّ والثقافيّ والحضاري على هذا النحو الذي زعموه ؟! إن تاريخنا لم يعرف صوتًا واحدًا قال : إن الانتماء الحضاريّ للعرب والمسلمين هو إلى حضارات اليابان والصين والهنود ، ومن ثم فلم تقم في تاريخنا مقابلة بين شرقيتنا بمعنى يابانيتنا أو صينيتنا أو إغريقيتنا ورومانيتنا ، وإنما المقابلة كانت ولا تزال بين شرقيتنا بمعنى إسلاميتنا وعروبتنا ، المتميزة حضاريًا ، عن كل من الغرب الإغريقيّ وعن اليابان والصين والهند أيضًا ، وبين الحضارات الأخرى . إن حضارات الشرق الأقصى قد طبعتها فلسفات الديانات الوضعية الوثنية التي سادت

عقائد أممها وشعوبها ، والحضارة الغربية قد طبعتها مواريث الإغريق والرومان ، حتى لقد طُوعت مسيحيتها لهذه المواريث . وبين حضارات الشرق الأقصى والحضارة الغربية تميزت الحضارة الإسلامية ، تلك التي دار ويدور الجدل حول علاقتها بالحضارة الغربية ، وهل هي علاقة « التَمَيُّز والتفاعل » ؟ أم « التَّبعيَّة والذوبان والاندماج » ؟ تلك هي حقيقة المقابلة والمفاضلة : شرقيتنا الحضارية نحن العرب والمسلمين ؟ أم غربيتنا الحضارية كإغريق في الثقافة نعيش في الشرق الأدنى من بلاد الإغريق ؟! أما استدعاء حضارات الشرق الأقصى ، وتصويرها في صورة البديل الذي علينا أن نختار بينه وبين الغرب الحضاري ، فلم يكن إلا لونًا من الخداع الفكري ، قصد به أصحابه إخفاء تميُّزنا كشرق عربي إسلامي ، عن كل من حضارات الشرق الأقصى والحضارة الغربية جميعًا ! لقد استدعى دعاة التبعية والإلحاق الحضاري نقيضًا وهميًا ، ليصوروا أن بديله هو الاندماج في الحضارة الغربية ، في محاولة غربية لإخفاء القضية الجوهرية التي دار ويدور حولها الخلاف ، وهي مدى تميزنا ، كعرب ومسلمين ، حضاريًا ؟ ومشروعية استقلالنا الحضاري ، الذي يعترف به الكافة للهنود واليابانيين والصينيين والغربيين ؟

في ضوء هذه الحقيقة ، التي كشفت وتكشف هذا « الخداع الفكري » ، نقرأ مذهب سلامة موسى الذي عبرت عنه كلماته الحادة حول حقيقة انتماء الأمة ثقافيًا وحضاريًا ، والذي لخصه الرجل في الادعاء بأننا « فرنجة » ، علينا أن نحتقر كل ما هو شرقي ، وننـدمج في كل ما هو أوربي ! ولحسن الحظ فإنه لم ينجح ، أثناء عرض مذهبه ، في أن يخفي مراده من

مصطلح « الشرق » ، فكل « الشرق » الذي صب عليه جام غضبه كان عربيًا إسلاميًا ، ولم يتوجه نقده إلى شيء من « شرق » الصين واليابان !

لم يكن لسلامة موسى من مقومات « الانتماء للذات الثقافية العربية الإسلامية » ما كان للدكتور طه حسين ؛ ولذلك اختلف مستوى التعبير لدى كل منهما عن هذه « المقومات » ، فطه حسين « يحترمها » مع الادعاء بأنها « إغريقية الجذور والمستقبل » ، بينما سلامة موسى « يحتقرها » ويدعو إلى التخلص منها ، واستبدال الثقافة والمكونات الحضارية الأوربية بها ! فهو يقول : « كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة ، توضحت أمامي أغراضي ، فهي تتلخص في أنه : يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا . فإني كلما زادت معرفتي بالشرق ، زادت كراهيتي له ، وشعوري بأنه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي بأوربا ، زاد حبي لها وتعلقي بها ، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها ، فأنا أزاول حرفة الأدب ؛ لكي أدأب في وعظ أمتي بوجوب كفها عن ممارسة العادات التي اكتسبتها من آسيا ، ووجوب اصطناعها عادات أوربا . وأريد من التعليم أن يكون تعليمًا أوربيًا لا سلطان للدين عليه ، ولا دخول له فيه . وأريد من الحكومة أن تكون ديمقراطية برلمانية كما هي في أوربا ، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون ، أتوقراطية دينية . وأريد من الأدب أن يكون أدبًا أوربيًا ... أبطاله فتيان مصر وفتياتها ، لا رجال الدولة العباسية ولا رجال الفتوحات العربية . ثم أريد أن تكون ثقافتنا أوربية ، أما الثقافة الشرقية فيجب أن نعرفها ؛ لكي نتجنبها ، لما نرى من آثارها في الشرق ، آثار : العبودية والذل والتوكل على الآلهة » !

وجدير بنا ، وقبل أن نكمل النصوص المعبرة عن مذهب سلامة

موسى ، أن نلفت النظر إلى حقيقة المراد ببعض المصطلحات .

فالرجل يدعو إلى « الخروج من آسيا » و « الالتحاق بأوربا » ، وبدهي أنه لم يكن داعية هجرة من « جغرافية المكان » ، فآسيا هنا مصطلح حضاري وثقافي معناه : الإسلام وحضارته . والمستشرق والسياسي الفرنسي « جبرييل هانوتو » [١٨٥٣ - ١٩٤٤ م] - صاحب الحوار الشهير - الذي رد عليه الإمام محمد عبده - حول « المسألة الإسلامية » ، يعبر عن بوادر انسلاخ « تونس » من الإسلام وحضارته ، والتحاقها بالحضارة اللاتينية ، فيقول : « **يوجد الآن بلد وأرض تنفلت شيئًا فشيئًا من مكة ومن الماضي الآسيوي** » ! [١] و « نمط الإنتاج الآسيوي » - الذي تحدث عنه كارل ماركس في مراسلاته مع فريدريك أنجلز - هو نمط الإسلام في التملك والإنتاج . والمجلات والجمعيات الاستشراقية التي حملت كلمة « آسيا » كانت متخصصة في دراسة الإسلام وحضارته ، « فمكة والماضي الآسيوي » - بعبارة هانوتو - العنوان على الإسلام وثقافته وحضارته ، وليس مصطلحًا جغرافيًا مجردًا .

أما « الشرق » ، الذي يدعو سلامة موسى إلى استبدال أوربا به ، والذي عدد « مثالبه » ، فإنه - بتعداد « المثالب » - لم يدع للشك مجالًا في أن مراده « الشرق العربي الإسلامي » ، وليس « الشرق الأقصى » الياباني أو الصيني - كما حاول هو وطه حسين خداع القراء وتخفيف الصدمة على المتلقين .

---

(١) الإسلام والرد على منتقديه / لمجموعة من العلماء . - القاهرة ، ١٩٢٨ . ص ٢٧

فالدين الذي يدعو إلى إخراجه من التعليم ، حتى يكون التعليم « أوربيًا – علمانيًا » هو الإسلام ، الذي كان يدرس في مدارسنا ، فلم تعرف مدارسنا ديانات الصين أو اليابان أو الهنود !

والحكومة التي يرفضها هي التي تحتكم إلى الشريعة الإسلامية ، كما كان الحال في عهد الرشيد والمأمون ، وهو يريد بدلًا منها حكومة « أوربية – علمانية » .

والأدب الذي يريده هو أدب « العامية المصرية » ، لا العربية الفصحى ، أدب الإقليم المصري ، وليس الانتماء العربي والإسلامي .

وهو لا يريد الثقافة الإسلامية المؤمنة التي تعلم الإنسان « التوكل على الله » ، بل يريد ثقافة علمانية أوربية تلتزم بفلسفة « التنوير الغربي الوضعية » ، التي عزلت الدين والله والسماء عن الفكر والثقافة وكل شؤون العمران الإنساني . فـ « آسيا » و « الشرق » هنا يُراد بهما حضارة الإسلام لا حضارة الصين واليابان ! ويمضي سلامة موسى ليهون على قرائه هذه المهمة التي يدعو إليها – احتقار الشرق العربي الإسلامي ، والانسلاخ منه ، والالتحاق بأوربا ، ثقافيًا وحضاريًا – فيقول : إن ألف عام من الحكم والحضارة والثقافة الآسيوية – [وهنا ننبه إلى أن هذه الحقبة – الألف عام – هي عمر سيادة الإسلام والعربية في المنطقة – ولا علاقة للأمر بآسيا اليابان أو الصين !] – يقول : إن هذا الزمن من حكم الإسلام وثقافته لم يغير من انتمائنا الأوربي !

ونص عباراته يقول : « **ولست أجهل أن آسيا قد حكمت مصر نحو ألف**

عام ، وبسطت عليها حضارتها وثقافتها ، بل ودست دمها في دماء أبنائها ، ولكننا نحمد الأقدار - [؟!] - أننا ما زلنا في السّحنة والنزعة أوربيين ، إذ نحن أقرب في هيئة الوجه ونزعة الفكر إلى الإنجليزي أو الإيطالي ، وكذلك الحال في سوريا وشمال إفريقيا العربي ، فإن سكان هذه الأقطار أوربيون سحنة ونزعة ، فلماذا إذن لا نصطنع جميعًا الثقافة والحضارة الأوربيتين ، ونخلع عنا ما تقمصناه من ثياب آسيا ؟!

هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي ، سرًا وجهرة . فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب . وفي كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوربا في العصر الحديث ، وأن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب ، ويتصلون من الشرق ... » ! [١] .

ذلك هو مذهب سلامة موسى : مواجهة الإسلام وحضارته ، واحتقار كل ما له صلة بالعروبة والإسلام ، ودعوة لطي صفحة تاريخنا الحضاري العربي الإسلامي ، والتنصل من كل آثارها ، والاندماج في الحضارة الغربية وثقافتها باعتبارنا « أوربيين سحنة ونزعة » أي في الخَلْق والخُلُق والفكر والثقافة جميعًا !

وعلى هذا المذهب يطلق جيل التلاميذ - تلاميذ سلامة موسى - مصطلح « التنوير » ويطبعون كتبه ؛ ليواجهوا بها المشروع الإسلامي هذه الأيام .. فهل بقي في الأمر غموض أو إبهام ؟ !

وإمعانًا في « التمويه » - ولا أظنه الجهل - الذي يريد استبعاد « الشرق الإسلامي » تحت ستار استبعاد « الشرق الأقصى » - الصيني والياباني -

(١) سلامة موسى . اليوم والغد . ص ص ٥ - ٧ .

يتحدث سلامة موسى عن قيام « الرابطة الشرقية » - بالقاهرة - في العشرينيات باعتبارها « إحدى كوارث هذا الاعتقاد في شرقيتنا » ! بل ويجعل عنوان مقاله هذا : [الرابطة الشرقية سخافة] ، ويدعو - بدلًا من هذه « الكارثة والسخافة » - إلى « رابطة غربية » بيننا وبين أبناء أوربا ، فيقول : « **وإحدى كوارث هذا الاعتقاد في شرقيتنا ، اهتمامنا بالشرق دون الغرب ، حتى لقد تأسست في القاهرة جمعية تدعى « الرابطة الشرقية » ، فيها أعضاء من الهند وجاوة ، ولعل بها أعضاء أيضًا من الصين . فما لنا ولهذه الرابطة الشرقية ؟ وأية مصلحة تربطنا بأهل جاوة ؟ وماذا ننتفع منهم ، وماذا هم ينتفعون منا ؟ ! إننا في حاجة إلى رابطة غربية ، كأن تؤلف جمعية مصرية يكون أعضاؤها من السويسريين والإنجليز والنرويجيين وغيرهم ، مثل هؤلاء النظاف الأذكياء - [؟ !] - نستطيع أن نؤلف رابطة معهم ، ولكن ما الفائدة من تأليف رابطة مع الهندي أو الجاوي ؟ ! إننا أمة قد سرنا شوطًا بعيدًا في الحضارة الغربية ، التي هي منا ونحن منها** » [1] .

وكما أشرنا ، فإن هذا الاعتراض على « الرابطة الشرقية » هو إمعان في « التمويه » ذلك أنها كانت رابطة بين المجاهدين من أبناء شعوب الأمة الإسلامية الشرقيين ، الذين جمعتهم وتجمعهم ، مع رابطة العقيدة الإسلامية والحضارة الإسلامية ، آمال وآلام المواجهة مع الاستعمار الغربي الذي احتل بلادهم جميعًا . فعلاوة على الرابطة الإسلامية - التي يريد سلامة موسى استبعادها بإخفائها تحت عنوان « الشرق » الذي أوهم قراءه أنه « الشرق الأقصى » - شرق اليابان والصين - علاوة على

(١) المصدر السابق ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

« إسلامية » هذه الرابطة « الشرقية » ، فإنها كانت رابطة شعوب جمعتها المعاناة من الاستعمار الغربي ، والسعي للتحرر الوطني من نير احتلاله واستغلاله ، وكفى بهذه المهمة مبررًا لقيامها ، ومع ذلك فسلامة موسى يرشح للمصريين رابطة غربية تجمعهم والإنجليز المستعمرين لهم ولأبناء الشرق كله ، بدلًا من رابطة تجمع المستضعفين المجاهدين في سبيل التحرر الوطني والنهوض الحضاري !

والأغرب من ذلك ، أن هذا الذي كتبه سلامة موسى في العشرينيات ، يعود الدكتور طه حسين ليكتبه في الثلاثينيات فيقول : **« ومهما أنس فلن أنسى مواقف الحيرة والعجز عن الفهم التي كنت أقفها منذ أعوام ، أمام جماعة كانت تقوم في مصر ، وكانت تسمى نفسها جماعة الرابطة الشرقية ، وكانت تذهب في سيرتها وتفكيرها هذا المذهب الغريب ، مؤثرة التضامن مع أهل الشرق الأقصى على التضامن مع أهل الغرب الأدنى »** (١) .

وإذا كان سلامة موسى مات في الخمسينيات – أي بعد قيام « مؤتمر باندونج » سنة [١٩٥٥ م] – فإن « عمالته الحضارية » قد ميّزت بينه وبين الدكتور طه حسين ، الذي عايش أنشطة التضامن الآسيوي الإفريقي وأسهم فيها ، في حقبة تطوره الفكري ، منذ ارتباطه الأوثق بالمشروع الوطني القومي – في امتداداته التضامنية مع الشعوب المستضعفة – إبان المواجهة الحادة مع الغرب لتصفية استعماره لأمم وحضارات الشرق كلها . لقد كانت مقاصد سلامة موسى واضحة : نحن فرنجة ، وعلينا أن نتفرنج ونندمج في الحضارة الأوربية ، التي تمثل المثل الأعلى في كل

(١) مستقبل الثقافة في مصر ، ج ١ ، ص ١٥ .

شيء ، من الإنسان ـ خِلْقَةً وخُلُقًا ـ إلى الفكر والثقافة والحضارة ، حتى لقد بلغ في عشق الأوربيين حد لوم المصريين وتعنيفهم على « حسدهم » لمستعمريهم الإنجليز! ولما كانت الجامعة الشرقية ـ بل وحتى « الشرق » كمصطلح ـ تمثل عقبة في طريق التفرنج والإلحاق الحضاري والدمج الفكري والتبعية الثقافية ، فلقد ذهب سلامة موسى في ذمها والهجوم عليها كل مذهب ، بما في ذلك مذاهب العبث اللامعقول .

ولما لم يكن هناك سبيل لإلغاء كلمة « الشرق » – كمصطلح – فلقد زعم سلامة موسى أننا سمينا شرقيين ، لا لأننا غير الغربيين ، وإنما لأننا غربيون ! فسبب التسمية أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية ! وفي هذا « العبث اللامعقول » يقول « رائد التنوير » – الذي يواجه تلاميذُه اليوم بكتبه المشروعَ الإسلاميَّ والصحوةَ الإسلاميةَ – يقول : « **إن للألفاظ تأثيرًا كبيرًا في العقول . فإذا نحن غرسنا في أذهان المصري أنه شرقي ، فإنه لا يلبث أن ينشأ عن احترام الشرق وكراهة الغرب ، وينمو في نفسه كبرياء شرقي ، ويحس بكرامة لا تطيق أن يجرحها أحد الغربيين بكلمة ، فينشأ على كراهة الحضارة الغربية ويقاومها ، ولا يصطنعها إلا مقهورًا مغلوبًا على نفسه . ولكن الواقع أننا لسنا شرقيين ، وإنما جاءنا هذا الاسم من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية** » [١] .

فهو لا يريد للإنسان الشرقي الكبرياء ، ولا الكرامة التي لا تطيق أن يجرحها الغربي ، وهو يكتب ذلك وبلاده محتلة من قبل الإنجليز الغربيين !

---

(١) اليوم والغد ، ص ١٧٩ .

لقد كان داعية لنزع الاحترام والكبرياء والكرامة عن الشرق والشرقيين !

أما أن « شرقيتنا » – كاسم – قد جاءتنا من أننا كنا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، فهو عبث كان يقتضي لاستقامته أن يعلل الرجل « شرقية الفُرس » وغيرهم من الأمم الآسيوية ، والذين لم يكونوا في يوم من الأيام جزءًا من الدولة الرومانية الشرقية !

لكن الرجل يعود فينقض دعواه العبثية ، بادعاء عبثي آخر ، فبعد أن زعم أن « شرقية العرب » قد جاءت من عيشهم نحو ألف سنة جزءًا من الدولة الرومانية الشرقية ، عاد ليزعم أنهم – العرب – قد صاروا شرقيين « بتوغلهم في آسيا إلى حدود الصين ، وأيضًا بعادة التسري وعادة الضرار – [تعدد الزوجات] – اللتين أجازهما لهم الإسلام ، فدخلهم دم آسيوي ، وبخاصة صيني كثير ، فإن لفظة أمَة ، بمعنى جارية ، هي لفظة صينية ، وقد دخلت اللغة العربية لكثرة الإماء اللاتي كان يشتريها العرب من الصين ! [١] .

والمرء يدهش لكثرة الأكاذيب في هذه العبارة الموجزة . فزواج العرب المسلمين من الصينيات ، ووجود جوار صينيات – في حقبة الرق بالتاريخ الإسلامي – أمران لا أثر لهما ولا ذكر عنهما في تاريخ العرب والمسلمين ! والرجل نفسه في مكان آخر ، هو الذي يكذب ذاته ، عندما يقول : « **نحن في هيئة الوجه أوربيون ، ولو لبس السوري أو العربي أو المصري قبعة ، لما استطاع الإنسان تمييزه من الإيطالي أو الأسباني ، ولكن مهما لبسنا فإننا نتميز من الصيني أو الجاوي أو الياباني** ! [٢] .

(١) المصدر السابق . ص ١٩٦ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٨٠ .

فأين هي الدماء الصينية الكثيرة أو الآسيوية التي دخلت العرب بعد الإسلام ؟ ! ، ثم من علَّم سلامة موسى أن لفظة « أمة » صينية ، دخلت العربية بعد الإسلام بسبب الجواري اللائي أتت بهن الفتوحات ؟ !

ألم يسأل أحدًا من العامة ليعلم أن « أمة » كلمة عربية جاءت في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف : ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢١] ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٢] . و « أيما رجل ولدت أمة منه فهي معتقة » (١) ... إلخ .

لقد كان الرجل باحثًا – بالحق أو بالباطل – وإن شئت فقل بكل ضروب الباطل – عن مبررات « التفرنج » والإلحاق بثقافة الغرب وحضارته « فذوقنا – [كما يقول] – ودمنا هما الذوق والدم الغربيان . ونحن في هيئة الوجه أوربيون » ! .. بل لقد سعى إلى إثبات أن المصريين – الذين يستعمرهم الإنجليز – هم والإنجليز شعب واحد ، حتى اللغة المصرية القديمة – الهيروغليفية بينها وبين اللغة الإنجليزية اشتراك في مئات الكلمات ! « **فلقد أثبت إليوت سمث : أن الشعب الأول الذي سكن مصر ، لا يختلف البتة عن الشعب الذي كان يسكن انجلترا قبل (٤٠٠٠) سنة ، وبين المصرية القديمة والإنجليزية الراهنة مئات الألفاظ المشتركة لفظًا ومعنى** (٢) .

---

(١) رواه ابن ماجه والدارمي والإمام أحمد . ومفردها وجمعها واردان في عشرات الأحاديث .

(٢) اليوم والغد . ص ١٨٠ .

والرجل بهذا الحديث عن اتحاد المصريين بمستعمريهم الإنجليز ، إنما يتجاوز « العمالة الحضارية » ليقترب من « العمالة السياسية » ! وإلا فبماذا نفسر قوله : « إن الأجانب يحتقروننا بحق ، ونحن نكرههم بلا حق ! » - وهل هذا كلام إنسان وطني ؟ ! - وقوله : « **كانت أكثر كراهيتنا للأجانب حسدًا** - [؟] - **لأنهم نازعونا البقاء فغلبونا ، واشتغلوا بالتجارة والصناعة والصيرفة ، ولم يتركوا لنا سوى الزراعة نعمل فيها كالعبيد** » ! فأمته - في رأيه - وتبعًا للداروينية - محكوم عليها بالفناء في صراع البقاء مع الأجانب الأقوياء ، الذين نحسدهم ونكرههم بغير حق ، بينما هم محقون في احتقارنا !

ولذلك كانت دعوة سلامة موسى إلى دمج الأجانب في المصريين ، وليس إلى تحرير مصر منهم ، وإلى إزالة مخاوفهم « بفصل الدين عن الدولة ، وإلغاء التعليم الديني من المدارس ! » - والدين هنا هو الإسلام وحده ، وإلا فالمدارس الأجنبية كلها مدارس إرساليات تبشيرية ! وكانت إشادته بالإنجليز المستعمرين لمصر « **كأرقى أمة في العالم جسمًا ، وعقلًا ، وخلقًا** » [١] . فماذا تكون « العمالة السياسية » - في أمة مستعمرة - غير هذا الذي قال « رائد التنوير » سلامة موسى ؟ !

وسلامة موسى عندما قال : « **إنني أدعو إلى التنصل من آسيا والانضمام إلى أوربا ، والإيمان بحضارتها وثقافتها** » [٢] ، كان واضحًا في الدعوة إلى

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٠ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٠٤ .

« التنصل » من كل المكونات والمقومات الشرقية – « العربية – الإسلامية » – في فكرنا وثقافتنا وحضارتنا وعاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا ، كان داعية لإلغاء « الذات » الحضارية ، واستبدال « الآخر – الحضاري – الأوربي » بها .

فهو يدعو إلى هجر الثقافة العربية ، وتحويلها إلى « المتاحف » تدرسها قلة من علماء الحفريات ، كما يدرسون آثار « بابل » و « آشور » ! فيقول : « **إن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض ، ولهذا المرض مضاعفات ، فنحن لا نكره الغربيين فقط ، ولا نتأفف من طغيان حضارتهم فقط ، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية فندرس كتب العرب ، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب كما يفعل أدباؤنا المساكين ، أمثال المازني والرافعي ، وندرس ابن الرومي ، ونبحث عن أصل المتنبي ، ونبحث عن عليّ ومعاوية ونفاضل بينهما ، ونتعصب للجاحظ ، ونحاول أن نثبت أن العرب عرفوا الفنون .. وكل ذلك إنما يدفعه إلى أنفسنا كراهتنا للغرب ، وأنفتنا من جهة ، واعتقادنا أننا شرقيون من جهة أخرى** »[1] .

كل هذا ، برأي سلامة موسى ، من أعراض « مرض الشرقية » ، أي الاعتقاد بأننا شرقيون – فكراهة الغرب ، بل مجرد التأفف من طغيان حضارته علينا ، وأي مظهر من مظاهر الولاء للثقافة العربية ، وأي لون من « الأنفة » ، هي أعراض لمرض الاعتقاد بأننا شرق عربي له ثقافة عربية ، ولسنا غربًا ، ثقافتنا وحضارتنا هي ثقافة الغرب وحضارته .

---

(١) المصدر السابق . ص ١٨٣ .

ولذلك ، فإن علاج هذا « المرض » – عند سلامة موسى هو إلغاء الثقافة العربية ، وإحلال الثقافة الغربية محلها . وفي وصف هذا العلاج يقول : « **إنه ليس علينا للعرب أي ولاء ، وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم ، فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب المصري الحديث ، لا الأسلوب العربي القديم . ويجب أن يعرفوا أننا أرقى من العرب ، وليس معنى هذا تحريم درس العرب وتاريخهم وثقافتهم ، فإن العرب أمة قديمة يجب أن يكون لها أثريون يدرسونها كما يدرسون آشور وبابل** » (١) .

والموقف نفسه يتخذه سلامة موسى من الفنون والآداب العربية والإسلامية ، يدعو إلى هجرانها ، والاستعاضة عنها بالفنون والآداب الأوربية . فيخاطب قارئه قائلًا : « **ألا يرى القارئ ما جره علينا تعلقنا بالشرق ، وتوهمنا أننا أمة شرقية ، حتى أننا ليس لنا ما يغذي عواطفنا الآن من شعر أو موسيقي أو رقص أو غناء ؟ ... إننا نحتاج الآن إلى ما يهيج قلوبنا ، ويملؤها تفاؤلًا بالحياة ، ولن نجد ذلك إلا بارتباطنا بالغرب ، واصطناع ما عند الغربيين من رقص وألحان وموسيقي ، أما الشعر العربي ، فقد سئمنا قوافيه الرتيبة التي تشبه دق الطبل عند السودانيين** » (٢) .

ورغم أن سلامة موسى قد كان يعيش ويعايش شعر أحمد شوقي [١٢٥٨ – ١٣٥١ هـ / ١٨٦٨ – ١٩٣٢ م] وحافظ إبراهيم [١٢٧٨ – ١٣٥١ هـ / ١٨٧١ – ١٩٣٢ م] وعباس العقاد [١٣٠٦ – ١٣٨٣ هـ / ١٨٨٩ – ١٩٦٤ م] وأحمد محرم [١٢٩٤ – ١٣٦٤ هـ / ١٨٧٧ –

(١) المصدر السابق . ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٩٠ .

١٩٤٥م] وجيلا كاملًا من فحول الشعر العربي ، الذين جمعوا - في الشعر - بين « الأصالة » و « المعاصرة » ، إلا أنه يفتري على الشعر العربي ، فيزعم أنه لا يزال جامدًا عند صورته الجاهلية ، بل ويعمم الاتهام على مجمل الأدب العربي المعاصر ، فيقول : « **إن نزعة الجمود - أي ما للقديم من حرمة - منعت هؤلاء الأدباء من استنان أي سنة جديدة في عالم الأدب العربي ؛ ولذلك بقي الشعر في أيام الدول الإسلامية المتقدمة والمتأخرة كما كان أيام الجاهلية** » ![1]

ولما كانت اللغة العربية هي وعاء هذه الثقافة والفنون والآداب ، التي دعا سلامة موسى إلى هجرانها ، وتحويلها إلى المتحف مع آثار بابل وآشور - وهي لغة القرآن ، وتقاليد العرب وتراثهم - فلقد صب عليها الرجل جام الغضب ، ودعا إلى هجرها ، والاستعاضة عنها بلغة الهكسوس ، أي العامية المصرية ، التي رفض حتى أن يعترف بعلاقتها باللغة العربية !

لقد اتهم العربية بالعجز حتى عن وصف أثاث الغرفة التي يجلس فيها ، وقال إنها غريبة عنا ، وأنها عاجزة عن الوفاء بمتطلبات الترجمة عن اللغات الأخرى ، وأنها لغة بدوية تبعثر الوطنية المصرية في إطار القومية العربية الأوسع ! وأنها تربطنا بالشرق ، وتحول دون توجهنا إلى الغرب ، ودعا إلى تحويلها إلى متحف اللغات الأجنبية ، ندرسها كما ندرس الروسية والإيطالية !

فهي عنده « **لغة بدوية ، لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها الآن . ها أنا ذا في هذه الغُرْفة لا أعرف كيف**

(١) المصدر السابق . ص ٦٨ .

أصف أثاثها بالعربية ، ولكني أستطيع إجادة وصفها بالإنجليزية » (١)

ولأنه يسير على مذاهب المهندس الإنجليزي « وليم ولكوكس » [١٨٥٢ - ١٩٣٢ م] الذي دعا المصريين إلى إحلال العامية محل الفصحى ، والذي ترجم الإنجيل إلى العامية ، لينافس بترجمته هذه ترجمته الفصحى ، فلقد كان نصيب الفصحى من هجوم سلامة موسى نصيب الأسد من الفريسة .

فهو يتهمها بأنها « لغة ميتة » ليس الآن فقط ، بل وحتى في عصر نزول القرآن ! فيقول : « إن الفصحى في اعتقادي كانت لغة الكتابة فقط ، أي لغة ميتة حتى في زمن ظهور القرآن ، ولكن تعليم العربية في مصر لا يزال في أيدي الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نقعًا في الثقافة العربية ، أي في ثقافة القرون المظلمة ، فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه ، ونسلمه للأفندية الذين ساروا شوطًا بعيدًا في الثقافة الحديثة ، ونحن إنما ننزع للغة العرب القديمة ، لما تأصل في أذهاننا من ذلك الغرض السخيف ، وهو أننا شرقيون ، يجب علينا أن نحافظ على كرامة العرب وندافع عن تاريخهم ، وهذا الاعتقاد في شرقيتنا يجر علينا عددًا من الكوارث قد لا يكون الولاء للغة أهونها » (٢) .

فأصل الكوارث ، عند سلامة موسى هو الاعتقاد بتميزنا الحضاري كشرقيين ، فمنه تترى كوارث الولاء للغة والثقافة والحفاظ على الكرامة

(١) المصدر السابق . ص ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٨٦ .

والتاريخ ! أي والله ! هذه كوارث بنظر سلامة موسى ، الذي ينشر تلامذتُه اليوم كتبه باعتباره رائد « التنوير » الذي سيواجه المشروعَ الإسلاميَّ والصحوةَ الإسلامية !

وسلامة موسى يجعل من جهله وعجزه في العربية دليلًا على عجزها عن الوفاء بما تتطلبه الحياة الحديثة ، فبعد أن ادعى عجزها ؛ لأنه عاجز عن أن يصف بها أثاث حجرته ، اتهمها بالعجز لأنه عاجز عن الترجمة بها عن اللغات الأخرى فقال : « **إننا للآن نرطن اللغة الفصحى رطانة ، ولم تشربها بعد نفوسنا ، ولا أمل في أن نشربها ، لأنها غريبة عن مزاجنا . وقد عاينت الترجمة إلى اللغة الفصحى عدة سنوات فما رضيت مرة عن نفسي وارتضيت الترجمة . فإنما نحن نؤلف ونعتقد أو ندعي أننا نترجم ، وذلك لأن هذه اللغة الفصحى هي لغة بدوية ، والثقافة هي بنت الحضارة وليست بنت البداوة ، فلهذا يشق علينا جدًّا أن نضع معاني الثقافة في هذه اللغة سواء بالترجمة أم بالتأليف** » [1] .

ولم يسأل سلامة موسى نفسه : كيف ترجمت حضارات الدنيا إلى العربية ، من الفرس إلى الهند إلى اليونان إلى الحضارة الأوربية الحديثة ؟ ! بل إن الرجل لم يتنبه ، في غمرة كراهيته للغة العربية ، إلى أنه قد كذَّب نفسه بنفسه ، وذلك عندما اعترف بأن العربية قد مثلت لغة العلم والروح العلمية التي تميزت بها الحضارة العربية ، والتي تتلمذ فيها الغرب على الإسلام والعربية ، حتى أن علماء أوربا ، الذين أخذوا العلم والمنهج

---

(١) المصدر السابق ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

التجريبي – أي المصدر الثالث من مصادر الثقافة الأوربية – بتعبير سلامة موسى – إن هؤلاء العلماء الأوربيين المجددين ، الذين صنعوا النهضة الأوربية إنما « كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة اللغة العربية » !

يعترف سلامة موسى بهذه الحقيقة الشاهدة على مجد العربية وعظمتها وإمكاناتها ، فيكذب نفسه بنفسه ، عندما يقول : « **أما الأصل الثالث للثقافة الأوربية ، فهو الروح العلمية التي ظهرت في الأندلس على أيدي العرب ، فقد انغمس الإغريق في النظريات الفلسفية ، وانتقلت هذه العدوى إلى العرب ، لكنها لم تغمرهم ، فإنهم أخذوا في العمليات ، أي في التجربة ، وكان للتجربة عندهم شأن كبير ، وبخاصة عندما أخذوا في محاولة إيجاد الذهب من الزئبق ، فدرسوا أشياء ، هي في الواقع أصل النزعة العلمية الحديثة التي تتسم بالتجربة . ومما هو ذو دلالة في النهضة الأوربية أن المجددين من أمثال « روجر بيكون » كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة اللغة العربية** » [١] .

لكن سلامة موسى ينسى هذه الحقائق ، ويتناسى دلالتها على قدرة العربية الفصحى على التواصل والتفاعل مع اللغات والحضارات ، ويمضي ليصب عليها جام الغضب ، وكيف لا ، والرجل داعية انسلاخ عن الشرق والعرب والإسلام ، بينما العربية رباط بين مصر والشرق والعرب والإسلام ! فهو – وبتعبيره – « ينقم » عليها أنها تجمع مصر بهذا الإطار الحضاري الأوسع الذي يريد أن يحطمه ويلغيه ، فيقول : « ومما

(١) المصدر السابق . ص ١١٠ ، ١١١ . وانظر كذلك ص ١١٢

يمكن أن ينقم على اللغة الفصحى أيضًا ، أنها تبعثر وطنيتنا المصرية ، وتجعلها شائعة في القومية العربية ، فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب ، ويعجب بأبطال بغداد القدماء ... فنظره متجه أبدًا نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية . مع أننا في كثير من الأحيان نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب . والثقافة تقرر الذوق والنزعة ، وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق » ! (١) .

فالرجل يريد عزل مصر عن جسمها العربي ، ليسهل تحقيق حلم سلفه القديم « المعلم يعقوب اللعين » في إلحاقها بالغرب الأوربي .

. والعربية تمثل عقبة أمام العزل والانسلاخ ، وأمام الضم والإلحاق كليهما ، فلذلك استحقت منه النقمة التي نراها في هذه النصوص .

أما البديل الذي رشحه سلامة موسى ليحل محل العربية ، فهو العامية المصرية ، بل لقد اجتهد حتى أجهد الحقيقة ، فزعم أن لا علاقة لهذه العامية المصرية بالعربية الفصحى ، وجاء بكلام مضحك زعم فيه أن هذه العامية هي لغة الهكسوس القدماء !

والمرء يعجب من رفض الرجل للعربية لأنها آسيوية قديمة ، في ذات الوقت الذي يدعو فيه إلى لغة الهكسوس – وهم رعاة آسيويون غزوا مصر – ولغتهم أقدم من العربية في مصر ! لكن العجب يزول عندما نعلم أن العربية جامع لمصر بالعرب والشرق والإسلام ، وفي ذلك العقباتُ أمام رسالة الرجل في سلخ مصر عن محيطها وتراثها لإلحاقها بالغرب الأوربي ،

---

(١) المصدر السابق . ص ٧٤ .

ولذلك فهو يفضل لغة الهكسوس ، الذين غزوا مصر قبل الميلاد بثمانية عشر قرنًا ، على العربية التي جاءت إلى مصر مع الفتح الذي حررها من الاضطهاد الذي يؤرخ به أقباطها حتى الآن !

ولذلك ، تجاهل الرجل تلك الحقيقة اللغوية التي أكدت وتؤكد أن العامية المصرية هي لهجة عربية ، وليست هكسوسية وهي حقيقة وصنعت فيها كتب ودراسات ، بل إن قاموسًا خاصًا قد أحصى كلماتها وعاد بها جميعها إلى [القاموس المحيط] للفيروز آبادي [٨١٧ هـ - ١٤١٤ م] (١) .

يتجاهل سلامة موسى هذه الحقيقة اللغوية - عن عروبة العامية المصرية - ويسير خلف المهندس الإنجليزي السير « وليم ولكوكس » [١٨٥٢ - ١٩٣٢ م] - الذي نعرف من سلامة موسى أنه كان مهتمًا « بتنصير المصريين » أيضًا - حتى لقد ترجم الإنجيل إلى العامية المصرية ! - والذي تزعم الدعوة إلى استبدال مصر العامية بالفصحى ، فكتب سلامة موسى عن « الداعية » و « الدعوة » يقول : « **إن السير وليم ولكوكس هو أحد أولئك الأجانب القلائل الذين تقر مصر بفضلهم وولائهم ، وهموم السير ولكوكس مصرية أكثر مما هي إنجليزية ، فهو يقيم في مصر ويفكر في صالح مصر ؛ لأن مصر هي وطنه الثاني** » (٢) .

---

(١) يوسف المغربي . دفع الإصر عن كلام أهل مصر / تحقيق عبد السلام أحمد عواد . موسكو ، ١٩٦٨ م .

(٢) مع أن الرجل إنجليزي ، ولد في الهند حيث الاستعمار الإنجليزي ، وخدم حيث =

ولأنها كانت أيضا الواسطة التي تمكن فيها من استغلال مواهبه في خدمة الناس وزيادة رفاههم . والهم الكبير الذي يشغل بال السير ولكوكس ، بل يقلقه ، هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلمها - [؟] - فهو يرغب في أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية ، فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا . إنه يدعو إلى هجر اللغة الفصحى هجرة تامة واصطناع العامية ، وقد ترجم هو نفسه الإنجيل إلى اللغة العامية المصرية ، فوفق إلى ترجمة حية يقرؤها المصري فيلذ له الأسلوب ، ويرى فيه جوًّا مألوفًا يشم منه النكهة البلدية ، وهو في اعتقادي أوقع في النفس من الإنجيل المترجم إلى اللغة الفصحى . وقد خطب منذ أشهر خطبة عن هذه اللغة ، جمع فيها اختباراته عنها ، وارتأى فيها أن هذه العامية التي نتكلمها في مصر ليس لها علاقة بالعربية الفصحى ، فكل منها لغة متميزة عن الأخرى ، ونحن لم نكتسبها عن العرب ، وإنما نزلت إلينا من الهكسوس الذين أقاموا في مصر نحو (٥٠٠ سنة) [١] .

هكذا رأينا المهندس الزراعي الإنجليزي « ولكوكس » « الإمام اللغوي » في دعوة سلامة موسى إلى هجر العربية ؛ لأنها لغة القرآن والتقاليد العربية والثقافة العربية والوحدة العربية . وخلف « ولكوكس »

= النفوذ الاستعماري الإنجليزي : فبعد مصر ذهب إلى العراق وعدن والأردن ، وله كتاب عنوانه : [من جنة عدن إلى مخاضة الأردن] . إبراهيم بدران ، محمد أسعد فارس . موسوعة العلماء المخترعين . - بيروت ، ١٩٧٨م .

(١) اليوم والغد . ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ .

سار الرجل داعيًا إلى التعامل مع العربية وكأنها « لغة أجنبية » عنا ، إذ « **يجب أن ننظر إلى لغة النابغة أو المتنبي كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية ، لأنها ليست لغتنا ولسنا نستفيد بدرسها** » (١) .

وللمرء أن يسأل دعاة العامية ، الذين زعموا عجز العربية عن أن تكون لغة العلم والفكر والثقافة والحضارة ، هل العامية أقدر منها في هذه الميادين ؟ أم أن القضية قضية « مراحل » ، فبعد قطع الروابط القومية والعقدية والحضارية بالعامية ، تأتي مرحلة الإلحاق اللغوي ، كجزء من الإلحاق الثقافي والحضاري ، بالغرب الأوربي ؟

إن مقارنة الدعوة إلى العامية ، في مصر ، بدلًا من العربية الفصحى ، بدعوة الاستعمار الفرنسي ، ببلاد الشمال الإفريقي ، إلى « البربرية » بدلًا من العربية ، تكشف لنا وحدة المخطط ، مخطط الاستعمار الغربي – إنجليزيًا كان أم فرنسيًا – ووحدة مقاصد « العملاء » – في مصر كانوا أم في الشمال الإفريقي .

ففي السنوات التي كان فيها « ولكوكس » يدعو مصر إلى « العامية » كان « ليوطي » – أول حاكم استعماري فرنسي في المغرب – يدعو لإحلال « البربرية » محل العربية ، ليتم الانتقال من « البربرية » إلى « الفرنسية » ، ولذات الأهداف التي تحدث عنها سلامة موسى ، فالعربية لغة القرآن ، وفيه العقبة أمام الدمج في الغرب والإلحاق بحضارته ، والتأييد لاستعماره . وإذا كنا قد عرضنا لآراء « ولكوكس »

---

(١) المصدر السابق . ص ١٨٤ .

ولنصوص سلامة موسى ، وإذا كنا نقرأ اليوم لمن يريدون في بعض بلاد الشمال الإفريقي - التراجع عن « التعريب » لأن « الحرف العربي يؤدي إلى الفكر الغيبي » ! - أي الإسلام - الذي يكرهون ويحاربون - إذا كانت هذه هي حقيقة المقاصد والغايات ، فإن كلمات « ليوطي » - المقيم العام الفرنسي في المغرب - سنة (١٩١٢ م) - تلقي المزيد من الأضواء على هذه الحقيقة ، فالرجل قد كتب يومئذ يقول : « **إن اللغة العربية تجر إلى الإسلام ، لأن هذه اللغة تتعلم في القرآن . هذا في حين أن مصلحتنا تحتم علينا العمل على جعل البربر يتطورون خارج إطار الإسلام ، ومن الناحية اللغوية يجب أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية** »[١] .

ولقد كان « ولكوكس » وسلامة موسى يريدان لمصر ما أراده « ليوطي » للبربر : التطور خارج إطار الإسلام ، وهجر العربية - لغة القرآن التي تتعلم فيه - إلى العامية ، للعبور منها إلى الإنجليزية ، وإلا فماذا تعني كلمات سلامة موسى عن تراث العربية : « **إنه تراث لغوي ، يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها ! فالعربية ليست لغة الديمقراطية والأتوميل والتليفون ، بل لغة القرآن وتقاليد العرب** » ![٢] .

---

(١) محمد عابد الجابري . يقظة الوعي العروبي في المغرب . في : تطور الوعي القومي في المغرب العربي .- بيروت ، ١٩٨٦م ، ص ٤٤ .

(٢) على عقلة عرسان . البلاغة العصرية واللغة العربية - والنص في الفصحى والعامية والحوار المسرحي .- الرياض ، ١٩٩٠م ، ص ٩ .

ماذا تعني هذه الكلمات إذا لم تعن ما أراد « ليوطي » وأضرابه من أساطين الاستعمار والسحق لهوية الأمة العربية الإسلامية !

تلك هي رسالة سلامة موسى حيال تميز الحضارة الشرقية – في الإطار العربي الإسلامي – عن الحضارة الأوربية ، وتلك هي « نصوصه » – أو بالأحرى « معاوله » – التي انهال بها على المكونات التي ميزت وتُميز حضارتنا عن الغرب ، في الثقافة والفنون والآداب ، والتراث ، وفي اللغة التي مثلت وتمثل الوعاء لكل هذه المكونات .

ولم تُخفِ صراحة سلامة موسى – وهي من فضائله – أن الأب الشرعي لدعوته « هجران الشرق والالتحاق بالغرب » : هو بونابرت [١٧٦٩ – ١٨٢١ م] قائد الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م] . فهو – بعبارة موسى – **«الذي شَرَعَ يغرس فينا الحضارة الأوربية ويزيل عنا كابوس الشرق »** فرسالة سلامة موسى هي غصن من غراس نابليون .

لكنه يتململ من قصور « الغرس » وبطئه في النمو ، ويشكو من « العقبات » التي تجعل الكثيرين يترددون عن السعي في هذا الطريق . فيقول : « **لقد مضى علينا أكثر من (١٣٠ سنة)** [(١)] **ونحن في موقف التردد ، لا ندري هل نحن شرقيون ، يجب أن نسير على ما سارت عليه آسيا ؟ أم غربيون ، ويجب أن ننضم إلى أوربا قلبًا وقالبًا ، نعتاد عادات الأوربيين ونلبس لباسهم ، ونأكل طعامهم ، ونصطنع أساليبهم في الحكومة**

(١) هي السنوات الفاصلة بين الحملة الفرنسية – سنة ١٧٩٨ م – ونشر كتاب [اليوم والغد] – سنة ١٩٢٨ م .

والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة ... ولقد شرع نابليون يغرس فينا الحضارة الأوربية ، ويزيل عنا كابوس الشرق ، ثم جاء محمد علي فاعتمد على فرنسا في تمدين البلاد ، ثم استمررنا نتراوح بين الشرق والغرب حتى زمن إسماعيل ، حين رأى بنافذ بصيرته أنه لابد لنا من أن نتفرنج ، ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا ، ثم جعلنا نلبس الملابس الأوربية ، ووزع بين أعيان البلاد فتيات من الجركس لكي يتحسن اللون ويقارب البشرة في إدارة الحكومة ، وهانحن أولاء نجد أنفسنا الآن مترددين بين الشرق والغرب ، لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوربية ، ولكن وسط الحكومة أجسامًا شرقية ، مثل وزارة الأوقاف ، والمحاكم الشرعية ، تؤخر تقدم البلاد . ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدن ، ولكن الأزهر يقف إلى جانبها يبث بيننا ثقافة القرون المظلمة . ولنا أفندية قد تفرنجوا ، ولكن إلى جانبهم شيوخًا لا يزالون يلبسون الجبَب والقفاطين ، ولا يتورعون من التوضؤ على قوارع الطرق في الأرياف ، ولا يزالون يسمون الأقباط واليهود « كفارًا » ، كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل (١٣٠٠) سنة ... إنهم شيوخ مأفونون ، يعدون التفرنج رذيلة ، مع أنه عين الفضيلة » ! [١] .

والطريف ، أن سلامة موسى ، على كراهيته لآسيا وللدم الآسيوي ، قد رأى في دماء الجواري الشركسيات مصدرًا لتحسين شكل المصريين ، حتى تقرب بشرتهم من « البشرة الأوربية » ، ولم ير فيهن – كما رأى في الأزهر والأوقاف والثقافة الإسلامية – عقبات أمام « التفرنج » الذي زرعه نابليون والإنجليز !

---

(١) اليوم والغد . ص ١٧٧ – ١٧٩ ، ١٩٤ .

وأمام هذا التردد ، الذي حال دون عموم « التفرنج » ، دعا سلامة موسى إلى إلغاء كل مكونات ومؤسسات الموروث ، ففي رأيه : أنه « **ما من أمة تنهض إلا وتنسلخ من قديمها ، وكل ما هو باق لنا من القديم سيء لا يزال يؤذينا ... مثل وزارة الأوقاف ، والمحاكم الشرعية ، والمجالس المحلية ، والبطركيات العديدة ، والأزهر ، الذي يشتغل بثقافة قديمة بائدة في عصر حديث ، فهو أداة الثقافة المظلمة ، ثقافة القرون الوسطى ، وإيثاره على الجامعة المصرية يشبه إيثار الجمل على الأتومبيل ، أو الحمار على الطيارة ، ولذلك لا أتردد في القول بإلغاء الأزهر والاكتفاء بالجامعة المصرية لأنها أداة الثقافة الجديدة النيرة** » ! [١] .

هكذا رأى سلامة موسى : الشرق ، والرابطة الشرقية ، والحضارة الشرقية ، ومكوناتها العربية الإسلامية ، في الفكر ، والثقافة ، والآداب والفنون ، واللغة ... فدعا إلى إلغائها جميعًا ، بل ودعا إلى إلغاء « الكرامة الشرقية » ؛ لأنها ، مع هذه المكونات ، عقبات أمام « التفرنج » .. ولم يتردد في الدعوة إلى إلغاء كل المؤسسات التي ترعى هذه الخصوصيات الحضارية ، من الأزهر ، إلى المحاكم الشرعية ، إلى الأوقاف ، إلى المجالس المحلية والبطركيات ! وكان صريحًا إلى درجة « الحدة » ، فلم يغلف ولم ينافق ، كما صنع ويصنع آخرون .

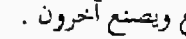

(١) المصدر السابق . ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ١٨٢ .

الرابطة الدينية

سخافة .. لا تليق ؟!

وبعد أن تحدث سلامة موسى عن الرابطة الشرقية ، وتميزنا كشرقيين ، حضاريًا وفكريًا وثقافيًا عن الغرب الأوربي ، واعتبر ذلك كله سخافة كبرى ، بلغ قمة هذا الهجوم عندما تحدث عن « الرابطة الدينية » .

والرابطة الدينية التي عناها ، وصب عليها الحمم هي الرابطة الإسلامية ، التي تجمع بين أمة الإسلام ، ولقد رآها الرجل جماع حجج القائلين بتميزنا حضاريًا عن الغرب ، ومن ثم بضرورة استقلالنا بسمات وقسمات حضارية تميزنا .

لقد اعتبر الإيمان بوجود رابطة تجمع الأمة الإسلامية ، وتميز انتماءها عقديًا وحضاريًا .. اعتبر ذلك لونًا من الجهل بروح الزمن ، الذي رآه تجاوز الدين وروابطه كلها . وسخر من دعوة الحزب الوطني ، بزعامة مصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ / ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] إلى رابطة الجامعة الإسلامية ، بل ومن اهتمام المصريين « بأخبار العالم الإسلامي » وأحوال المسلمين في « أدرنة وبخارى » وغيرها من حواضر الإسلام . وأثنى على تجربة أتاتورك [١٢٩٨ - ١٣٥٧ هـ / ١٨٨١ - ١٩٣٨ م] التي اقتلعت الانتماء الإسلامي من تركيا اقتلاعًا ! وزعم وجود تناقض بين « الوطنية » وبين الانتماء للجامعة الإسلامية ، حتى لقد ذهب في هذا الزعم إلى أن « الوطنية » « مبدأ أوربي لم يعرفه العرب قط » ! واتهم دعاة الجامعة الإسلامية بأنهم دعاة « فتنة بين الأقباط » ، وبأن دعوتهم هذه إلى الجامعة

الإسلامية إنما تمثل « ردة عن الوطنية » ! بل لقد ذهب الرجل على درب محاولات إزاحة الرابطة الدينية ، عن طريق سعيه « للتفرنج والاندماج في أوربا » ، إلى حد الزعم بأن ديننا - حتى الإسلامي - لا يميزنا عن أوربا ، فقال : « **إن أديياننا لا تختلف البتة عن أديان أوربا ، حتى الإسلام نفسه يكاد يكون مذهبًا من المسيحية** » . **وذلك ليخلص إلى غايته ، وهي « أن حضارتنا هي حضارة أوربا »** [١] .

والأكثر غرابة في « فكر » سلامة موسى، المعادي للرابطة والجامعة والانتماء الإسلامي ، أنه بعد أن أقام تناقضًا بين « الوطنية » و « الجامعة الإسلامية » ، وطلب من المصريين التضحية بانتمائهم الإسلامي في سبيل وطنيتهم ، عاد ليطلب منهم التضحية بوطنيتهم في سبيل العالم ، إذ « **غاية كل مصري أن يكون بارًا بالعالم** » [٢] ... **وإذا كنا نضحي بأنفسنا لأجل مصر فيجب أن نضحي بمصر لأجل العالم . فالعالم هو وطننا الأكبر ، وليست ترتكز الوطنية على أننا نحب مصر أكثر من العالم ...** » [٣] .

فهو يدعو للتضحية « بالعالم الإسلامي » في سبيل مصر ، ثم يدعو للتضحية بمصر في سبيل العالم الأكبر ، وكأنما العالم الإسلامي ليس جزءًا من هذا العالم الأكبر ! وكأنما دعاة الجامعة الإسلامية - وفي مقدمتهم مصطفى كامل - لم يكونوا رواد البعث للوطنية المصرية بعد

---

(١) المصدر السابق . ص ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٩٥ .

(٣) المصدر السابق . ص ١٩٤ .

هزيمة العرابيين ، حتى لقد كان شعارهم : « لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا » .

لقد كان هدف سلامة موسى - في الحقيقة - إزاحة الرابطة الإسلامية ، لا لأنها - كما زعم - تنكر « الوطنية » أو تتجاهلها ، وإنما لأنها هي « المميز الحضاري » للمصريين والعرب والمسلمين عن الحضارة الغربية ، التي جعل الاندماج فيها والذوبان بها رسالته الأولى في هذه الحياة ؛ ولذلك عقد مقالاً جعل عنوانه : « الرابطة الدينية وقاحة » ! قال فيه : « **إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ، لأنها تقوم على أصل كاذب ، فإن الرابطة الدينية وقاحة ، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا ، وقد كان مصطفى كامل ، لجهله بروح الزمن ، يخبرنا ، ولا يزال فلول المحررين من « المؤيد »** [1] **و « الحزب الوطني » يخبروننا ، نحن المصريين عن : الإسلام في الصين تحت عنوان : « أخبار العالم الإسلامي »** .

وقد شبعت تركيا من الجامعة الإسلامية ، ونفضتها عن نفسها ، وتخلصت منها ، لا لأنها أضاعت دينها ولم تعد تؤمن به ، بل لأنها لم تعد تؤمن بفائدة الجامعة الإسلامية ، بعد أن خبرتها في الحرب الكبرى فوجدتها قصبة مرضوضة لا تغني ولا تنفع . إن الدين الآن ليس تشترك فيه الجماعات ، وإنما هو عقيدة يعتقدها الفرد عن علاقته بالكون . ويبدو لي أنه لا يمكن أن يتفق اثنان في العالم في عقيدة دينية ، كما لا يتفقان في ملامح الوجه ، فديانة المستقبل هي ديانة فردية لا جماعية ، بل هي صوفية حرة

---

(١) صحيفة الشيخ علي يوسف .

لا يتقيد فيها الفرد بما يؤمن به فرد آخر أو أمة أخرى . وكيف يمكننا أن نعتمد على جامعة دينية ، بينما في العالم نظرية تقول : إن الإنسان لم يكن راقيًا فانحط ، كما تقول الأديان ، بل هو كان منحطًا فارتقى ؟ نعني بها نظرية التطور . بل كيف يمكن أن إنسانًا مستنيرًا قرأ تاريخ السحر والعقائد أن يطلب منه أن يحترم جامعة دينية ؟ ! إن الجامعة الدينية في القرن العشرين وقاحة شنيعة[١] . إننا في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان ، ويجب أن نفصل الدين عن الدولة ، ونلغي تعليمه في المدارس »[٢] .

ثم ينتقل من الافتراء على الجامعة الإسلامية - من حيث المبدأ والقيمة - إلى الافتراء على علاقتها بالوطنية والانتماء الوطني ، فيقول : « **وربما كان إسماعيل باشا [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ / ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] أول من بذر بذور الوطنية المصرية ؛ لأنه هو الذي جعل الأمة تصطنع الحضارة والمبادئ الغربية ؛ والوطنية مبدأ أوربي ، لم يعرفه العرب قط ، ولذلك لا وجود لهذه الكلمة في المعاجم العربية ؛ لأن العرب لم يعرفوا سوى الإسلام جامعة تجمعهم ، وظهر عرابي ، وحاول أن يقوي هذه الوطنية ، ويجعل مصر أمة دستورية ، ولكنه خاب في مسعاه .**

ثم حدث ارتداد في الفكرة الوطنية بظهور مصطفى كامل ، والخديوي عباس [١٢٩١ - ١٣٦٣ هـ / ١٨٧٤ - ١٩٤٤ م] و « المؤيد » ، فإن كل هؤلاء عادوا إلى جامعة الإسلام ، وأوشك مصطفى كامل ومحررو جريدته أن يحدثوا فتنة بين الأقباط بهذا السخف والهراء . ولكن الأقدار هيأت لنا

---

(١) اليوم والغد . ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

رجلاً آخر هو لطفي السيد ، صاحب « الجريدة » ، فإنه نظر حوله فرآنا شائعين في العالم الإسلامي ، ورأى الأذهان قد زاغت عن الصراط الوطني ، حتى كان المزارع أو التاجر أو الصانع المصري يالي بقراءة أخبار المسلمين في « أدرنة » و « بخارى » أكثر ما يالي بحادث قتل في الجيزة ، وعندما شبت الحرب بين تركيا واليونان سنة (١٨٩٨ م) ، جمع المصريون نحو ستين ألف جنيه أرسلوها إلى الآستانة لمعاونة الأتراك ، مع أنهم كانوا في حاجة إلى ستين ألف مليم لتعليم صبي مصري .

وشرع لطفي السيد يكتب لنا دروسًا كل يوم عن الوطنية ، وأن المصري يجب أن يقصر جهوده على مصر ، وأخذ يفشي المبادئ الأوربية بيننا عن العائلة وحرية المرأة ، واللغة والأدب ، والسياسة ... ورأى الأقباط ، بعد أن كانوا لا يهتمون بوطنية الخديوي عباس ، ومصطفى كامل و « المؤيد » ، أن وطنية لطفي السيد مصرية لا شائبة فيها ، وأنها لا تزيغ بهم إلى الجامعة الإسلامية ، أو الجامعة العثمانية ، فصاروا يؤمنون بالوطنية »[١] .

والناظر في هذه السطور ، لسلامة موسى ، يجد فيها من الأكاذيب الجريئة بعدد ما فيها من العبارات ، فهو يزعم أن الوطنية مبدأ أوربي ، لم يعرفه العرب ولا وجود له في معاجمهم ، مع أن مصطلح « الوطن » الذي تنسب إليه الوطنية ، مادته قائمة ، والحديث فيها طويل في كل معاجم العربية وقواميس الفكر الإسلامي ، لغوية كانت أو فكرية . هذه القواميس ، من [لسان العرب] لابن منظور ، إلى [الكليات] لأبي البقاء ، إلى [كشاف اصطلاحات الفنون] للتهانوي ، إلى غيرها من المعاجم والقواميس ، بل إن

(١) المصدر السابق . ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

قائمة المؤلفات الإسلامية والعربية في الوطن وحبه والوطنية كفطرة إنسانية في الحياة والتراث العربي والإسلامي ، هذه القائمة استلفتت الأنظار فكانت موضوعًا لدراسات متخصصة ، فمن رسالة الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥ هـ / ٧٨٠ - ٨٦٩ م] : في [الحنين إلى الأوطان] - التي تحدث فيها عن كيف « كانت العرب إذا غزت أو سافرت حملت معها من تربة بلدها رملًا وعفرًا تستنشقه »(١) - إلى [المنازل والديار] لأسامة بن منقذ [٤٨٨ - ٥٨٤ هـ / ١٠٩٥ - ١١٨٨ م] ، إلى [زبدة حلب] لابن العديم [٥٨٨ - ٦٦٠ هـ / ١١٩٢ - ١٢٦٢ م] ، إلى [الديارات] للشابشتي [٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م] إلى [مطالع البدور ومنازل السرور] لعلي بن عبد الله البهائي [٨١٥ هـ / ١٤١٢ م] ... إلخ .

بل إن الإسلام ، الذي علم الأمة أن وحدتها - جامعتها الإسلامية - هي فريضة إلهية ، هو الذي يعلمنا - قرآنه الكريم - أن « حب الوطن » هو قرين « حب الحياة » ، فالإخراج من الوطن قرين الإخراج من الحياة - أي الموت - ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء : ٦٦] كما جعل الإخراج من الديار أعظم أسباب الجهاد ضد الذين يخرجوننا من الديار أو يظاهرون على هذا الإخراج ، وسوى بين ذلك وبين القتال في الدين والفتنة عن الاعتقاد ، وجعلها معايير « الصداقة » و « العداوة » و « الولاء » و « البراء » ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ

(١) الجاحظ . الحنين إلى الأوطان . في كتابه : رسائل الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون . - القاهرة ، ١٩٦٤م . ج ٢ ، ص ٣٩٢ .

يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج : ٣٩ - ٤٠] .

حتى لقد غدت عبارة : « حب الوطن من الإيمان » مأثورة إسلامية اشتهرت بين العامة باعتبارها من سنة الرسول ﷺ ، فوحدة الأمة الإسلامية ووحدة دار الإسلام لا تنتقص من الوطنية ، ولكنها توسع دائرة الوطن ، فلا تحصره في إقليم ضيق ، يحدد العنصر أو العصبية الجاهلية حدوده ، وإنما تجعل العقيدة والحضارة معيارًا لهذه الحدود .

وإذا كانت الوطنية التي يعجب بها سلامة موسى هي التي تجعل « المصري يقصر جهوده على مصر » - حسب تعبيره - فلم يكن الخديوي إسماعيل - كما زعم - على هذا المذهب في الوطنية ، ففي عهد إسماعيل وصلت حدود مصر - سلمًا وحربًا - إلى « أوغنده » ، عبر « السودان » وإلى « زيلع » و « هرر » في القرن الإفريقي ، بل وكان لها إسهام في نزاعات البلقان [١] ، فلم تكن « الوطنية » بالمعنى « القطري الضيق » هي مذهب الخديوي إسماعيل .

وعرابي [١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ / ١٨٤١ - ١٩١١ م] الذي يزعم سلامة موسى أن الوطنية كانت لديه تعني « أن المصري يقصر جهوده على مصر » - هو الذي جمعت وطنيته بين « مصر للمصريين » وبين

---

(١) انظر وقائع هذه الأحداث في : محمد مختار باشا المصري . التوفيقات الإلهامية / تحقيق محمد عمارة .- بيروت ، ١٩٨٠م . ج ٢ .

« الجامعة الإسلامية » . وعندما سأله جرجي زيدان [١٢٧٧ - ١٣٣٢هـ / ١٨٦١ - ١٩١٤ م] عن صحة دعوى سعي ثورته إلى إسقاط الدائرة الإسلامية من اهتماماتها ، قال : « **إن هذا الادعاء هو من إرجاف المرجفين ؛ لأني أرى في ذلك ضياعًا للإسلام عن بكرة أبيه** »[١] .

أما مصطفى كامل ، الذي رأى سلامة موسى التناقض بين دعوته إلى « الجامعة الإسلامية » وبين « الوطنية المصرية » ، حتى لقد اعتبرها ردة عن الوطنية ، فإنه هو الذي جعل حب مصر عقيدة أسس عليها حزبه الوطني ، مع رؤيته للعلاقة الحضارية والتضامنية التي تجمع « الوطن » بدار الإسلام ، حتى لقد جسد النموذج العبقري في الجمع بين هذه الدوائر المتكاملة والمتعاضدة في سلم « الانتماء » .

ومن الصفحات المشرقة التي كتبها في هذا الموضوع نسوق هذه العبارات التي يقول فيها : « **إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا .. فمصر للمصريين ... ومحال أن نطلب مالكًا أجنبيًا عنا .. لكننا نود أن نكون قوة محالفة للدولة العلية [العثمانية] . فمن ناموس الطبيعة أن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويَتَناصرون ، ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته ، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها ، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع ، فميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي ، يزكيه أن لتأخر الشعوب الإسلامية أسبابًا واحدة ،**

---

(١) جرجي زيدان : [تراجم مشاهير الشرق] . انظر كتابنا : [جمال الدين الأفغاني المفترى عليه] ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨٤م .

وهذا هو معنى حركة الجامعة الإسلامية »[١] .

أما فرية إحداث مصطفى كامل لفتنة مع الأقباط ، بسبب شعار الجامعة الإسلامية ، فالتاريخ شاهد على أن أول إسهام للأقباط في العمل الوطني المنظم كان في « الحزب الوطني » الذي قاده مصطفى كامل ، وشهيرة هي نداءاته للأمة : « إياك والانقسامات ، فإنها منشأ الخراب والدمار ، إياك وهوس العداوات الدينية ، فإنها آفة الآفات ، إن المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد ، إنهم إخوة لنا في الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق »[٢] .

ولقد شهد له زعماء الأقباط – الذين تعلموا الوطنية في مدرسته – بذلك ، فقال عنه مرقص حنا باشا [١٢٨٩ – ١٣٥٣ هـ / ١٨٧٢ – ١٩٣٤ م] : إن مصطفى كامل « قد كون الوحدة الوطنية ، وأرانا طريق الإخاء والحرية ورسم لنا طريق الوفاق والتآلف ، طريق الحرية والاستقلال . إنه لم يكن صديقًا لفريق من المصريين ، بل كان صديقًا لجميع الوطنيين على السواء ، إن حياته تعني أن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد وهو مصر ، هو الوطن العزيز »[٣] .

---

(١) محمد عمارة . الجامعة الإسلامية والفكرة عند مصطفى كامل . – دمشق ، ١٩٨٩م . ص ص ٤٦ – ٨٣ .

(٢) المصدر السابق . ص ٧٧ .

(٣) المصدر السابق . ص ٧٩ .

وإذا كان سلامة موسى معجبًا بـ « وطنية » لطفي السيد [١٢٨٨ - ١٣٨٢ هـ / ١٨٧٠ - ١٩٦٣ م] ، بينما يرى في مصطفى كامل ردة عن الوطنية إلى الجامعة الإسلامية بافتعال التناقض بينهما ، فيكفي لتبديد هذا الزعم أن نسوق رأي لطفي السيد في وطنية مصطفى كامل . لقد كان يرى في مصطفى كامل التجسيد للوطنية ، حتى لقد كتب عنه فقال : **« كان شعاره : الوطنية ، ووسيلته : الوطنية ، وغرضه : الوطنية ، وكلماته : الوطنية ، وكتاباته : الوطنية ، وحياته : الوطنية . حتى لبسها ولبسته ، فصار بينهما التلازم الذهني والعرفي ، فإذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطري الوطنية ، وإذا قلت : الوطنية فإن أول ما يتمثل في خيالك شخص مصطفى كامل ، فكأنما هو والوطنية شيء واحد : إن مصطفى كامل كان تمثال الوطنية ، إن مصطفى كامل كان مصريًا لجميع المصريين »**[1] .

هكذا سقطت كل دعاوى سلامة موسى ضد وطنية دعاة الجامعة الإسلامية ، وشهد شهوده هو على سقوط هذه الدعاوى ، ولم يبق له إلا الفكر الشائه لهذا المعنى الشاذ من معاني « الوطنية » ، والذي يستنكر أن يهتم الإنسان المصري بأخبار العالم الإسلامي ، وأن يكون عضوًا حيًا في جسد الأمة الإسلامية ، بينما يطلب منه سلامة موسى أن يقصر جهوده على مصر ، ثم يضحي بمصر لأجل العالم ، طالما أن العالم ليس إسلاميًا !

ذلك هو المعنى الشائه « للوطنية » عند سلامة موسى الذي عقد له الصفحات التي هاجم فيها « الرابطة الدينية » ، معتبرًا إياها « وقاحة شنيعة »

---

(١) المصدر السابق . ص ٧٢ .

وذلك بعد أن هاجم « الرابطة الشرقية » ، واصفًا إياها « بالسخافة » ، وداعيًا إلى التملص منهما ، وإلى « التفرنج » والذوبان في الإنجليز خاصة ، وفي عموم الأوربيين .

ولما كان هجوم الرجل - كما شهدت نصوصه - على الرابطة الشرقية والرابطة الدينية إنما هو - في حقيقته - هجوم على المكونات الحضارية الإسلامية ، التي تمثل عوامل تميزنا الحضاري عن الغرب الأوربي ، فإن تاريخ الإسلام - بما في ذلك خلافته الراشدة - لم تسلم من افتراءاته . فالفاروق عمر بن الخطاب كان حاكمًا مستبدًّا ، والخلفاء كانوا أسوأ من البابوات ! وفي ذلك يقول : « **إن الحكومة العربية كانت في أرقى وأحسن أوقاتها حكومة استبدادية ، ولا عبرة لما يقال بأن الإسلام أمر بالشورى ، فإن عمر بن الخطاب نفسه لم يكن يستشير أحدًا فيما يراه خيرًا لرعيته ... والخلفاء كانوا ينظرون إلى أنفسهم نظرًا بابويًّا ، بل البابا نفسه إذا قيس إليهم في بعض الأشياء يعد دستوريًّا** » ! [١] .

يقول سلامة موسى ذلك ، وهو يعلم - أو مفترض أن يعلم قبل أن يكتب - أنه حتى الرسول ﷺ - وهو المعصوم - كان يلزم نفسه - في الأمور الاجتهادية - بالشورى ، كآلية لاتخاذ القرارات وإدارة شؤون الدولة - حتى لقد قال - وهو رئيس الدولة - : « لو كنت مُؤَمِّرًا أحدًا دون مشورة المؤمنين لأمَّرتُ ابن أم عبد » - [عبد الله بن مسعود] [٢] - فبغير شورى المؤمنين لا يستطيع رئيس الدولة - النبي المعصوم - أن

(١) اليوم والغد . ص ١٨٥ .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد .

يُؤَمِّر أميرًا ؟ ! أما عمر بن الخطاب – الذي يتهمه سلامة موسى بالاستبداد – فهو القائل « الخلافة شورى ، ومن بايع أميرًا من غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ، ولا بيعة للذي بايعه ... » ! [١] .

أما اتهام الخلافة الإسلامية بأنها كانت « بابوية » ، فهو زعم نفاه – وليس فقط لم يقل به – كل المستشرقين الذين درسوا فلسفة الحكم الإسلامي ، ونظام الخلافة في تاريخ الإسلام ، بل وقالوا : إن فلسفة الحكم الإسلامي على العكس من فلسفة البابوية وحكمها تمامًا .

والمستشرق « سانتيلانا » David de Santillana [١٨٤٥ – ١٩٣١ م] – وهو الضليع في الشريعة الإسلامية ومذاهبها – وصاحب الدراسات القانونية الشهيرة – يتحدث عن علاقة الخليفة بالأمة ، فيصفها « بالرابطة التعاونية » تقوم إذا قام الخليفة بواجبه ، وتنفسخ إذا عجز عن ذلك « إن الرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة العرى ما دام الخليفة صالحًا للقيام بواجبه في حماية المجتمع الإسلامي ، فإذا لم يعد أهلًا لمنح شعبه ما يريده منه ، بطل سلطانه ، وفسخ العقد شرعًا بين المتعاقدين [٢] . ثم يقطع بنفي أية مشابهة بين « الخلافة » وبين « البابوية » – فيقول : « **والحقيقة أن سلطة الخليفة** ،

---

(١) رواه البخاري والإمام أحمد . وانظر فصل : « ضرورة الشورى » في كتابنا : الإسلام وحقوق الإنسان . القاهرة ، ١٩٨٩م .

(٢) سانتيلانا ، دافيد . القانون والمجتمع . في : تراث الإسلام / ترجمة : جرجيس فتح الله . بيروت ، ١٩٧٢م .

كرئيس ديني ، لا يمكن أن تعتبر سلطة جبرية أو بابوية مثلاً ، فهو متجرد تمامًا من صفة الكهنوت ؛ لأن حكومة المسلمين ما كانت في أي زمن أو ظرف حكومة دينية Hierarchy ولم يوجد فيها تعاقب رسولي » [١] .

وعندما نتأمل قول « سانتيلانا » : « إن حكومة المسلمين ما كانت في أي زمن أو ظرف حكومة دينية » ونقارنه بقول سلامة موسى : « لقد استوى العرب والإفرنج ، في القرون الوسطى ، أو كادوا يستوون ، في نظام الحكومة الاستبدادية التي يسيطر عليها رئيس ديني هو البابا أو الخليفة ... بل إن البابا إذا قيس بالخلفاء في بعض الأشياء يعد دستوريًا » [٢] ندرك الفارق بين « العالم » الذي ينصف الحقيقة ، بصرف النظر عن موقعه من الإسلام وموقفه من المسلمين ، وبين الذين زيفوا حقائق الفكر والتاريخ ، ليفتعلوا مماثلة بين الإسلام وبين النصرانية الأوربية ، وبين الخلافة الإسلامية - وهي دولة مدنية ملتزمة بالشريعة الإلهية - وبين الكهانة البابوية - التي ادعت العصمة فحكمت بالحق والتفويض الإلهيين . بين تطورنا التاريخي ، الذي لم يعرف حكومة الفقهاء ، وبين التطور الأوربي المغاير لتطورنا كل المغايرة . يفتعلون هذه المماثلة ، ليستعيروا « المشكلة الأوربية » حتى يستعيروا لها « الحل الأوربي » - أي « التنوير - العلماني » ، الذي يعزل السماء عن الأرض ، والدين عن العمران ، ويحل « العقل ، والعلم ، والفلسفة » -

---

(١) المصدر السابق . ص ٤٢٥ .

(٢) اليوم والغد . ص ٥٠ ، ١٨٥ .

آلهة التنوير الغربي – محل الله والقرآن والسنة – أو محل الشريعة – على الأقل – عند غير الملحدين من دعاة التنوير !

وما هذه الاستعارات الفاسدة إلا بهدف إيهامنا بأننا غرب في كل شيء ، في المنطلقات ، والمكونات الحضارية ، والدين والتطور التاريخي ، ومشكلاته وحلوله ، لنسير وراء دعوتهم إلى الانسلاخ عن إسلامنا وتميزنا الحضاري النابع من تميز إسلامنا ، الذي ميز تطورنا الحضاري – وإلى الذوبان في الغرب والاندماج فيه – لقد حاولوا ذلك ، في جيل « الرواد » ولا يزالون يحاولون ، في جيل « التلاميذ » ، مدعومين بالغرب ، الذي رأى ويرى في هذا الإلحاق الحضاري والتذويب الثقافي السبيل الوحيد لتأبيد وتأبيد تبعية عالم الإسلام لمركزه الغربي في « الأمن » و « السياسة » و « الاقتصاد » . تلك هي حقيقة المقاصد التي يريدونها من وراء محاربة المشروع الإسلامي للنهضة والتغيير بهذا « التنوير – الغربي – العلماني » !

سلامة موسى
والنزعة الفرعونية

وكما تميزت دعوة سلامة موسى - إزاء « الرابطة الشرقية » و « الرابطة الدينية » - بهذه « الصراحة العارية » إلى الحد الذي دعانا فيه إلى التضحية بالإسلام والعالم الإسلامي والعروبة والعربية في سبيل مصر ، ثم دعانا إلى التضحية بمصر في سبيل العالم ، بشرط ألا يكون هذا العالم إسلاميًا ! بل وبشرط أن يكون أوربيًا وغربيًا على وجه التحديد ! كما صنع الرجل ذلك مع « الرابطة الشرقية » و « الرابطة الدينية » ، صنع أيضًا مع « النزعة الفرعونية » ، فهو مع الفرعونية إذا كانت المقارنة بينها وبين العرب والإسلام والمسلمين ، بل لقد وجدناه مع لغة الهكسوس ضد اللغة العربية ، لغة القرآن . ولكن إذا كانت الفرعونية ستمثل « ذاتية خاصة » لمصر ، تحول دون « تفرنجها » وإلحاقها بالحضارة الأوربية ، فهو ضدها ، يدعو إلى تجاوزها ، ويتحدث عن استحالة العودة إليها من جديد ! إنه ضد أي تميز عن الغرب فرعونيًا أو عربيًا أو إسلاميًا أو شرقيًا ، حتى لقد ذهب - كما سبقت إشارتنا - إلى أن دياناتنا - المسيحية منها والإسلام - لا تختلف عن أديان أوربا ، رغم ما هو معروف له من موقف الكنيسة الأرثوذكسية المصرية من مذاهب الغرب المسيحية ، والتي تضعها في دائرة الكفر « بالنصرانية التي تؤمن بها ! » .

لكن ، هكذا حكمت « مقاصد » الرجل فحددت له الاختيارات والوسائل و « الأدلة » و الآليات ! فهو يفضل الفرعونية على العروبة والشرقية

والإسلام ، لكن إذا كانت الفرعونية ستصبح انتماءً مستقلًا عن الانتماء للغرب وبديلًا له ، فإنه يدعو إلى ضمها مع التاريخ العربي إلى « متحف الآثار » وبرامج « الدراسة في الحفريات » ! فيبدأ حديثه في هذه القضية متسائلًا : [« ولكن ، هل الغاية من التخلص من آسيا ، والشرق ، والتاريخ العربي ، أن نعود إلى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخها ؟

لست أشك في أننا لو فعلنا ذلك لكان أصلح لنا . خير لنا أن ندرس الفراعنة من أن ندرس العرب ، لا لأنهم جدودنا فقط ، بل أيضا لأن في درسهم تفتيقًا للأذهان ... ولكن صلتنا بالفراعنة قد انقطعت ، إذ لا نتصل الآن بهم بثقافة أو حضارة ، وغاية ما نرجوه أن يختص عندنا شباب بدرسهم ، كما يختص آخرون بدرس العرب ، وكلا الفريقين يشتغلان في درسهما بالآثار . وإذا كان المصريون القدماء لا يدخلون الآن في عقائدنا أو أدبنا أو علمنا ، فليس لأحد أن يقحم أدب العرب أو عقائدهم أو علمهم على آدابنا وعقائدنا وعلومنا وحضارتنا . فالمصري القديم والعربي القديم من الآثار التي ندرسها ، كما ندرس الفينيقي القديم . وإن كان المصري يمتاز بأنه يُثير أذهاننا عن نشوء الحضارات الأولى .

ولكن المهم الذي أرى وجوب تأكيده أننا ونحن نخلع أنفسنا من الشرق ، لا نفعل ذلك لكي نعود إلى وطنية فرعونية . كلا ، إنما نريد وطنية مصرية حديثة تنهج منهج القرن العشرين في الوطنيات والقوميات ، وتسير على المبادئ الأوربية فيهما .. »] [١] .

---

(١) المصدر السابق . ص ١٩٠ ، ١٩١ .

فالفرض عام وتام لكل أصالة ولكل تراث ولكل قديم لا يسير « على المبادئ الأوربية » . فالذين « **يستمسكون بالشرق يتعللون به في كراهة الغرب ، ويستمسكون بالقديم كبرياء وأنفة من أن يقال : إن حضارتنا ، باعتبارنا شرقيين ، قد أفلست أمام حضارة أوربا** » ! [١] . وسلامة موسى يريد أن يحرم الأمة حتى من « الكبرياء والأنفة » ، ولا يريد منها أقل من التسليم والاعتراف بالهزيمة والإفلاس الحضاري أمام « حضارة أوربا » .

وفي الوقت الذي ينكر على المصريين أية « روابط » مع العرب والمسلمين والشرقيين ، يزعم « وحدتهم » مع الأوربيين في « الدم ، والأصل ، والثقافة من عهد مدرسة الإسكندرية ومجمع أثينا » أي منذ ما قبل الميلاد . فيقول : « **وإذا كنا نحب السير مع أوربا ، فليس ذلك لأننا والأوربيين من دم واحد وأصل واحد فقط ، بل لأن ثقافتنا تتصل بثقافتهم من عهد مدرسة الإسكندرية ومجمع أثينا . وأيضا لأن حضارتها هي حضارة العالم الحديث كله** » [٢] .

لكن الرجل ، إمعانًا في « الدونية » ، وتكريسًا « للهزيمة النفسية » – وهي مؤهلات « التبعية للغرب والتشبه به والذوبان فيه » – عاد في موضع آخر ، ليلغي أي فضل للمصريين القدماء في حضارة الإغريق والرومان ! فعلى حين يردد الكثيرون تأثير مصر القديمة على فلاسفة اليونان : طاليس [٦٢٤ – ٥٥٠ ق . م] وفيثاغورس [القرن السادس قبل الميلاد]

---

(١) المصدر السابق . ص ١٨١ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٨٢ .

وأفلاطون [٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م] - الذي قال عن اليونان : « إنهم أطفال » إذا ما قيسوا بالمصريين ؟! على حين يردد الكثيرون ذلك ، حتى ليثبتوا الصلات التي تزكي دعوتهم لوحدتنا مع الغرب في الحضارة [١] ، نجد سلامة موسى يعدل عن سبيل « المماثلة في التأسيس الحضاري » إلى سبيل « الدونية .. والإفلاس » مبررًا دعوته للاندماج في الغرب الحضاري الحديث . فبعد أن زعم أننا مثل الغرب حتى في الديانات ، ادعى أن الغرب لم يستفد منا ثقافيًا ، فقال : « **وأول ما يجب إثباته ، أن أوربا الحديثة لم تستفد كثيرًا من « الشرق » من حيث الثقافة ، فإن الإغريق ، وهم أول أمة أوربية عنيت بالثقافة ، لم يكتسبوا شيئًا من المصريين ؛ لأن الفلسفة الإغريقية ثم الآداب الإغريقية ، لا تنتمي بنسب إلى فلسفة المصريين أو آدابهم ، وقد أنشأ الإغريق مدرسة الإسكندرية ، ولكن علماءها كانوا كلهم من الإغريق ، وكانت لغتهم إغريقية ، فلم يكن للمصريين فضل في هذه المدرسة ، ولم ينبغ منهم واحد فيها ، بل يجوز لنا أن نشك في دخول المصريين فيها** » [٢] .

وهو هنا ، إذ ينفي أي فضل للشرق والمصريين على الغرب ، قديمًا ووسيطًا ، ينسى ما قاله هو نفسه من أن أوربا قد أخذت النزعة العلمية والتجريبية عن العرب والمسلمين ، حتى « أن المجددين من أبناء وعلماء النهضة الأوربية ، أمثال روجر بيكون ، كانوا يهتمون بالإسلام وبمعرفة

---

(١) انظر : مراد وهبة . ثقافة شرق أوسطية . « صحيفة الحياة » ، أغسطس ١٩٩٣م .

(٢) اليوم التالي ص ١٠٨ .

العربية »[١] ! .. ينسى سلامة موسى ذلك ، ليكرس الهزيمة ، وينتزع « الكبرياء والأنفة » منا « فنُوَلِّي وجوهنا شطر أوربا »[٢] دونما أنفة أو كبرياء ! . وعندما وقف - كما قال « في مفترق الطرق » ورأى الحضارة الأوربية - بتعبيره هو - « تغزونا بشراسة الظافر واستكلاب القوي » لم يتردد في دعوتنا لقبول هذا « الغزو الشرس » ، بل لقد دعانا إلى « الطفرة » في قبول نتائج هذا « الغزو والاستكلاب » ! وقال : « **إن الطفرة ، على كل حال ، خير من الجمود ، وخاصة في مثل قطرنا ، وفي مثل وقتنا ، حين نجد كثيرًا من العادات الآسيوية تكاد تزهق أرواحنا وتعمل لإبادتنا ، أمام الحضارة الأوربية التي تغزونا بشراسة الظافر واستكلاب القوي** »[٣] .

فمخطط الرجل ، ورسالته الفكرية أن يذبح الرابطة الشرقية ، والعربية ، والإسلامية ، وأيضا الفرعونية على مذبح الغرب وحضارته ، نضحي بكل هذه الروابط في سبيل مصر ، لنضحي بمصر في سبيل العالم ، بشرط ألا يكون هذا العالم شرقيًا ولا عربيًا ولا إسلاميًا ، وإنما عالمًا أوربيًا على وجه الخصوص والتحديد ! تلك هي رسالة سلامة موسى وجيل الرواد الذين بشروا بالإلحاق الحضاري و « بالتنوير - الغربي - العلماني » الذي يقتلع المشروع الإسلامي ، باعتباره العقبة أمام هذا الإلحاق !

---

(١) المصدر السابق . ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٠٥ .

(٣) اليوم والغد . ص ٨٥ .

الرابطة الحقيقية

التَّفرنج في الشكل والمضمون ؟ !

في الوقت الذي « غلف » فيه آخرون « مذهب » سلامة موسى في التبعية والإلحاق الحضاري ، فسماها البعض « وحدة الحضارة العالمية والإنسانية » ، وسماها الدكتور مراد وهبة : « الحضارة المتوسطة » – أي حضارة البحر المتوسط ، التي تضم العرب والغرب الأوربي – ثم أخذ يوسع دائرتها ، مع الحديث عن « الرابطة الشرق أوسطية » – التي تضم إسرائيل – فدعا إلى « ثقافة شرق أوسطية » تقوم على الفيلسوف العربي : ابن رشد [٥٢٠ – ٥٩٥ هـ / ١١٢٦ – ١١٩٨ م] والفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون [٥٢٩ – ٦٠١ هـ / ١١٣٥ – ١٢٠٤ م] !

كما سماها الدكتور طه حسين : « **السبيل الواحدة الفذة التي ليس لها تعدد ، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يُحب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يعاب** » (١) .

في الوقت الذي تعددت فيه التسميات لهذا المذهب الواحد في الإلحاق الحضاري ، والتغريب الثقافي ، والتبعية الفكرية ، كان لسلامة موسى فضل « الصراحة العارية » في التعبير عن هذا الموقف ، والمفهوم ، والمضمون . لقد قال – دون مواربة أو تمويه : « **إنه لابد لنا من أن نتفرنج ، فالتفرنج هو عين الفضيلة ، على عكس الشيوخ المأفونين الذين يعدونه**

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر . ج ١ ، ص ٤٥ .

رذيلة » [١] . هكذا حسم الرجل الأمر ، دون « لف » أو « دوران » !

فبعد أن رفض « الرابطة الشرقية » و « الرابطة الدينية » و « الرابطة الفرعونية » - أي كل الروابط الشرقية ، وجميع ما يميزنا عن الغرب الأوربي ، ثقافيًا وفكريًا وحضاريًا - تحدث عن « التفرنج) باعتباره « الرابطة الحقيقية » التي علينا أن ننضم إليها دون إبطاء ، فقال : « **إن الرابطة الحقيقية التي تثبت على قاعدة ، وترسخ ولا تتزعزع ، هي رابطة الحضارة والثقافة ، هي رابطتنا بأوربا التي عنها أخذنا حضارتنا الراهنة ، ومنها تثقفنا ثقافتنا الجديدة . أجل يجب أن نرتبط بأوربا ، وأن يكون رباطنا بها قويًا . نتزوج من أبنائها وبناتها ، ونأخذ عنها كل ما يجد فيها ، ونظر للحياة نظرها ، ونجعل أدبنا يجري وفق أدبها ، بعيدًا عن منهج العرب ، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ، ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها ، ونرسل أولادنا إليها ليتعلموا علومها ويتخلقوا بأخلاقها ، فالرابطة الغربية هي الرابطة الطبيعية لنا** » [٢] .

ومضى الرجل « يتغزّل » في الغرب ، فالإنسان الأوربي : أرقى إنسان ، والحضارة الأوربية : أرقى درجات التطور الاجتماعي ، وحضارة الشرق لا تبلغ واحدًا من مائة من الحضارة الأوربية !

وبنص عبارته « **فإن الإنسان الأوربي أرقى إنسان ظهر في العالم للآن ، والحضارة الأوربية ، على ما فيها من عيوب تعد بالمئات ، هي آخر درجات التطور الاجتماعي . ومن البلاهة البالغة أن يظن أحد الشيوخ أن حضارة**

---

(١) اليوم والغد . ص ١٣٨ ، ١٩٤ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٨٩ .

بغداد أو القاهرة أو الأندلس كانت تبلغ في السمو عُشرًا أو جزءًا من مائة مما تبلغه الحضارة الأوربية الآن » (١) .

أما الإنجليز ، الذين كانوا يستعمرون مصر – وطن سلامة موسى – ويُذِلُّون شعبها ، فلقد قال عنهم : « **إن الإنجليز ، على الرغم من خصومتنا معهم وشدة إسفافهم في استغلال ضعفنا ، أرقى أمة موجودة الآن في العالم ، والخلق الإنجليزي يمتاز عن سائر الأخلاق ، والإنسان الإنجليزي هو أرقى إنسان ، من حيث الجسم والعقل والخلق ...** » (٢) .

ولقد دعا الإنجليز ، المحتلين لمصر ، إلى « صفقة » : تضمن مصالحهم ، ويساعدوننا على القضاء على مراكز الرجعية في مصر – أي مؤسسات ومكونات « الرابطة الشرقية ، والدينية ، والعربية » ، « **فنحن إذا أخلصنا النية مع الإنجليز ، فقد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم ، وهم في الوقت نفسه ، إذا أخلصوا النية لنا ، فإننا نقضي على مراكز الرجعية في مصر وننتهي منها . فلنولِّ وجوهنا شطر أوربا** » (٣) .

بل لقد بلغ به الأمر إلى حد تبرير احتقار الأجانب للمصريين ، وهجاء المصريين « لحسدهم » الأجانب وكراهيتهم لأنهم نازعوهم البقاء – وفق الداروينية – فغلبوهم على بلادهم وثرواتهم ، فكتب يقول : « **إن الأجانب يحتقروننا بحق ، ونحن نكرههم بلا حق** – [؟!] – **لقد كانت أكثر كراهيتنا لهم حسدًا ، لأنهم نازعونا البقاء فغلبونا** » .

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٠٣ .

(٢) المصدر السابق . ص ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ .

(٣) المصدر السابق . ص ٢٠٥ .

ثم يرى الحل في دمج هؤلاء الأجانب - الذين « يحتقروننا » - وإعطائهم كل امتيازات المواطنين ، فيقول : « **والأجانب ما داموا أجانب ، فهم شوكة في جسم الأمة . فيجب لذلك تمصيرهم ، والتزاوج بيننا وبينهم ، وحضهم على إرسال أولادهم إلى مدارسنا ، حتى يعرفوا لغتنا ، ويقرأوا صحفنا وكتبنا ، كما يجب أن نسمح لهم بالتوظيف في الحكومة والانتخاب للبرلمان ، ويجب أن نمنع وساوسهم فنفصل الدين عن الدولة ، ونلغي تعليمه في المدارس** » ! (١) .

لقد تحدث عن غلبة الأجانب لنا بمنطق « تنازع البقاء » ، فبرر القهر الاستعماري ، قهر الأقوياء للمستضعفين ، وكأنما قوانين الإنسان المتحضر هي قوانين الغابة . ولم يكلف نفسه السؤال : من الذي أجهض تجربة مصر في التحدي على عهد محمد علي باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ / ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] ؟ ! ومن الذي حرس أمراض الشرق ، حتى يرث دياره وثرواتها ؟ ! ومن الذي مكن لشُذاذ الآفات ومغامري أوربا من استغلال الإنسان المصري ؟ ! وهل إذا « كره » المصري هذا القهر وهذا الاستغلال يكون « حاسدًا بلا حق » لهؤلاء الغالبين المستغلين ؟! ومستحقًّا « بحق » احتقار هؤلاء المتغلبين ؟!

ولم يقنع سلامة موسى « بالتفرنج » الفكري والثقافي والحضاري ، بل ودعا إلى ذلك أيضًا في الهيئة والأزياء !

ففي الوقت الذي دعا فيه إلى التملص من العرب والمسلمين

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

والشرقيين ، تحدث عن أننا والأوربيين « أمة واحدة » ، ودعا إلى لبس « القبعة » ، باعتبارها « رمز الحضارة » الذي يقربنا للأجانب ، ويجعلنا وإياهم أمة واحدة .

كما أنها رمز للانسلاخ الفكري من الشرق ، والالتحاق الفكري بأوربا ! فكتب يقول : « وقد يكون اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة . والقبعة هي رمز الحضارة ، يلبسها كل رجل متحضر ، ولحن إذا لبسنا القبعة فلسنا بذلك نلبس لباس أوربا فقط ، بل نصطنع لباسًا اتفق المتحضرون على وضعه على رؤوسهم ، فإن للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها ، واتخاذ القبعة من هذه العادات ، فلسنا نحب أن نخرج على العالم المتمدين بلباس خاص يجعلنا في مركز من الشذوذ يجلب إلينا الأنظار ، فيعمد السائحون إلى تصويرنا كأننا أمة غريبة عن الأمم التي جاءوا منها .

وقد أدرك مصطفى كمال [أتاتورك] – الذي لم تُنجبْ بعدُ نهضتُنا رجلًا مثله ولا نصفه ولا ربعه – مقدار ما للقبعة من القيمة والإعلان بالانسلاخ من آسيا والانضمام لأوربا ، ولم يمتنع عن استعمال السيف في سبيل ذلك . إننا سنبقي ، في نظر أنفسنا ونظر الأوربيين ، شرقيين ، حتى نتخذ القبعة لرجالنا ولنسائنا ، ونعلن انسلاخنا من الشرق [1] ! إن العقلية الأوربية تسهل على الأفندي أن يتقمصها ، كما يتقمص اللباس الأوربي أكثر مما يسهل ذلك على الشيخ ، وهي أسهل على « المتفرنج » الذي يلبس القبعة مما هي على الأفندي لهذا السبب نفسه ، وعلى هذا القياس

---

(١) المصدر السابق . ص ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

أرى ، لغرامي بالحضارة الأوربية ، أن أحث بني وطني أن يلبسوا القبعة ، لأنها تبعث فينا العقلية الأوربية »[١] .

« فالشكل » عند الرجل مرتبط « بالمضمون » ، بل ومُعين عليه ، فبعد أن حكم بأن « ذوقنا ودمنا هما الذوق والدم الغربيان ، وأننا في هيئة الوجه[٢] أوربيون . وأن ثقافتنا وحضارتنا - بل ودياناتنا - أوربية » دعا إلى « تفرنج » الزي ؛ لأن ذلك أعون على أن « يبعث فينا العقلية الأوربية » . وامتدح أتاتورك الذي فرض ذلك على أمته بحد السيف !

وإذا كان الكثيرون ستصدمهم « الصراحة - العارية » لأفكار سلامة موسى وعباراته ، فإننا نحمد له هذه الصراحة ، ذلك أن غيره من « رواد « التنوير - الغربي - العلماني » قد دعوا إلى ذات المقاصد : الالتحاق بالنموذج الحضاري الغربي والاندماج في فكره وثقافته وقيمه ومناهجه ، لكن بعبارات وصياغات أخف مما صنع سلامة موسى ، وكذلك يصنع جيل « التلاميذ » ! وإنه لخير للأمة أن ترى « السُّم صافيًا » من أن تتناوله في « العسل المصفى » ! لقد كان الرجل واضحًا وحاسمًا وصريحًا عندما أعلن أن مذهبه هو هذا المذهب ، وعندما لخصه في هذه الكلمات : « كلما ازددتُ خبرة وتجربة وثقافة ، توضحتْ أمامي أغراضي .. وهي تتلخص في أنه : يجب علينا أن نخرج من آسيا ، وأن نلحق بأوربا . فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له ، وشعوري بأنه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي بأوربا ، زاد حبي لها ، وتعلقي بها ، وزاد شعوري بأنها

---

(١) المصدر السابق . ص ٨٢ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٨٠ .

مني وأنا منها . أريد تعليمًا أوربيًا لا سلطان للدين عليه ولا دخل له فيه . وحكومة كحكومات أوربا ، لا كحكومة هارون الرشيد والمأمون . وأدبًا أوربيًا ، أبطاله مصريون ، لا رجال الفتوحات العربية . ثقافة أوربية ، لا ثقافة الشرق ، ثقافة العبودية والذل والتوكل على الآلهة . واللغة العامية ، لغة الهكسوس ، لا العربية الفصحى ، لغة التقاليد العربية والقرآن . والتتصل من آسيا ، والشرق ، والانضمام إلى أوربا . والتفرنج في الأزياء ؛ لأنه يبعث فينا العقلية الأوربية . هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي ، سرًا وجهرة ، فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب .. » .

هكذا تكلم سلامة موسى ، وعلى هذا النحو الصريح صاغ مذهبه في « العمالة الحضارية » التي مارسها ويمارسها كثيرون غيره ، ولكن في ثياب من « المداراة » و « التمويه » !

لقد اكتشفت وأنا أنهي هذه الصفحات عن المشروع الفكري لسلامة موسى أن اليوم ـ ٤ أغسطس ـ هو الذكرى الخامسة والثلاثين لرحيله عن عالمنا ، ذكرني بذلك مقال نشر اليوم بصحيفة [الأهرام] وصفت فيه كاتبته سلامة موسى بأنه : « أحد رواد الفكر التنويري العربي ، وصاحب الرسالة التنويرية ، وأحد الذين مهدوا لنا طريق التنوير » ! [(١)] .

فحمدت الله على أن وفقني لكتابة هذه الصفحات .

تم الكتاب بحمد الله

---

(١) منى حلمي . في ذكراه : القلم الجريء سلامة موسى . ـ « الأهرام » : (٤ أغسطس ١٩٩٣م) .